الصليبيون والفاطميون والزنكيون
في معركة البابين
(١٨ مارس سنة ١١٦٧م / ٢٥ جمادي الأولى سنة ٥٦٢ هـ)

أ.د. فايز نجيب إسكندر
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
ورئيس قسم التـــــاريخ
كليـــة الآداب ــ بنهـــــا

تطورت الحركة الإسلامية لطرد الغزاة الصليبيين من الأراضـــي التـــي اغتصبوهـــا بانتهاء الحملة الصليبية الأولى، إلى حركة جهاد نهضت به دول الأتابكة في شـــمال العـــراق وبلاد الشام. وظهر من أمراء هذه الدول أتابك قوى هو عماد الدين زنكـــي أمـــير الموصـــل (٥٢١-٥٤١ هـــ / ١١٢٧ - ١١٤٦م) ، الذى نجح فـــي اســـترداد الرُهَـــا ســـنة ١١٤٤م / ٥٣٩هـــ، وسمى هذا الفوز بـــ " نصر الأنصار " . ثم خلفه ابنه نور الدين محمـــود ، فســـار على سياسته، ونجح في إفشال مخططات الصليبيين في دمشق والرها. وتحقيقاً لتوحيد الجبهـــة الإسلامية التي حرص عليها والده، قام بالاستيلاء على دمشق سنة ١١٥٤م / ٥٤٩ هـــ، فنتج عن ذلك تغير أنظار كل من نور الدين في حلب والصليبيين في بيت المقدس إلى مصر، فقـــد أدرك نور الدين أن الغزو الصليبي لعسقلان سنة ١١٥٣م / ٥٤٨هـــ، قد فتح الطريق أمامـــهم لغزو مصر، بينما رأى الصليبيون أن استيلاء نور الدين على دمشق، جعل مملكة بيت المقدس الصليبية مطوقة من قبل قواته من الشمال والشرق معاً، وبالتالي سيتوجه بعد ذلك إلى مصـــر لغرض تطويق المملكة الصليبية من ناحية الجنوب. وهكذا ، أصبحت مصر موضـــع ســـباق للفوز بها، ودار هذا السباق المصيري بين نور الدين محمود والملك الصليبي آمـــوري الأول (١١٦٢-١١٧٤م) Amaury I . وتعد معركة البابين (١٨ مارس سنة ١١٦٧م / ٢٥ جمادي الأولى سنة ٥٦٢ هـــ) الحلقة الوسطى في هذا السباق الضاري.

لقد تعرف أسد الدين شيركوه ــ عم صلاح الدين ــ أثناء حملته الأولى على مصر سنة ١١٦٤م / ٥٥٩هـــ على سوء أحوال الخلافة الفاطمية وضعفها رغم ثراء مصر. فغادرهـــا مُكرهاً ليعود إليها في حملة ثانية سنة ١١٦٧ م / ٥٦٢ هـــ ، وهي الحملة موضوع البحـــث، والتي سنسلط الأضواء فيها على تفاصيل معركة البابين على وجه الخصوص، تلك المعركـــة

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

التى لم تحظ إلا بأسطر عابرة تناقلتها كافة المراجع العربية التى تتسم بتجاهل تمحيص وتحليل ونقد المصادر الأجنبية بدقة بالغة، ومحاولة مقارنتها قدر الاستطاعة بالمصادر الإسلامية.

على أية حال، اعتبر نور الدين محمود فتحه لمصر جهاداً فى سبيل الله، وأدرك بثاقب بصره وبصيرته انه لابد له من ضمها إلى جبهة القتال لكونه يحارب عدوين من أعداء العالم الإسلامي آنذاك : الفاطميين والصليبيين . هذا بينما كان من بين نتائج حملة شيركوه الأولى، تطلعه إلى أن يكون نائباً عن نور الدين محمود، بعد أن يتم له فتح مصر. إلا أن تطلعه هذا سيتحول خلال حملته الثانية إلى طمع فى الاستقلال بها استقلالاً تاماً بعيداً عن سيده نور الدين محمود. وقد أظهر ذلك أثناء حديث ودي تم بينه وبين أسيره هيج سيد قيسارية HUGUES DE CESAREE ، الذى أطلق سراحه ليكون وسيط الصلح بينه وبين الملك الصليبي آموري[1].

إلا أن المؤرخ الصليبي وليم الصوري Guillaume de tyr أورد فى مصدره أن إشاعة انتشرت آنذاك مفادها أن شيركوه زار خليفة بغداد، وفصل له فى اللقاء ضخامة ثراء مصر، وأنباه أنها حوت كثرة عجيبة من كل رائع نادر، كما قص عليه الثراء الفاحش الذى ينعم به الخليفة الفاطمي، والأموال الكثيرة المتدفقة فى خزائنه من الضرائب والمكوس. ووصف أهل مصر بأنهم جنحوا إلى حياة الترف والتراخي، فوهنت حميتهم لطول عهدهم بالسلم الدائم . ولإثارة حمية الخليفة العباسي السنى ، كرر على سمعه أنهم تجرؤوا على القول بأن خلافتهم الشيعية هذه مكافئة لخلافة خليفة بغداد السنية. وبالفعل كتب الخليفة العباسي إلى جميع الأمراء، يطلب إليهم النهوض لمساعدة جيش نور الدين بقيادة أسد الدين شيركوه تلبية لنداء الجهاد [2].

---

(١) William of Tyre , A History of the Deeds done beyond the sea, trans, and annotated by E.A. Babcock and A.C. Kery, New York 1943 , t. II, PP. 339 – 340.

أنظر أيضا : وليم الصوري ، الحروب الصليبية ــ ترجمة حسن حبشي ــ القاهرة ١٩٩٥ ــ جـ٤ ، ص ٧٤-٧٥ ، وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ــ ترجمة سهيل زكار ــ دار الفكر ١٩٩٠ – جـ٢، ص ٩١٨-٩١٩.

وكان هيج على علاقة وطيدة بوليم الصوري، وقد وصفه بأنه كان شابا على جانب كبير من العقل والحكمة الراشدة وحسن التصرف لا يتوقعها أحد ممن كان فى مثل عمره . أنظر :

William of Tyre, t.II, P. 319 .

وكذلك وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ ٤ ، ص ٤٦ ، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٨٩٩.

(٢) William of Tyre , t. H, pp. 313 – 314 ; Guillaume de tyr et ses continusteurs, texte francais Du treizieme siecle , revu et annoté par Pauln Paris, Paris, Fmn didot, 1879, t..I, P.15; Willermus=

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

لقد بدأ شيركوه مسيره الثاني من دمشق نحو مصر في مستهل سنة ١١٦٧ م / أوائل ربيع الثاني سنة ٥٦٢هـ[١]، أي بعد نحو سنتين من حملته الأولى، وصحب معه جماعة من الأمراء وألفين من الفرسان. كذلك سار معه ابن أخيه صلاح الدين بعد أن ألزمه نور الدين بالمسير معه حسب قول ابن شداد[٢]. هذا بينما يذكر وليم الصوري المؤرخ الصليبي المعاصر (١١٣٠-١١٨٤م) * والذى دعاه أموري ذات مرة دعوة ودية للقاء به في قلعة صور[٣]، ذكر أن شيركوه زوده بما يكفيه من الطعام لأيام عديدة، إضافة إلى كميات وفيرة من

---

* archiepiscopus tyrensis, historia remum in partibus transmarinis gestarum in recucil des historiens des Cosades , Hsttoens occidentaux, paris, 1844, t.I, pp. 902- 903.

أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤ ، ص ٣٩، وليم الصوري : ترجمة سهيل زكار، جـ٢ ، ص ٨٩٤ ـ ٨٩٥ . وكذلك : Oldenbourg, Z. Les croisades, Paris , 1965 , p. 382; Michaud , J, Historie des croisades, paris, 1849 , t.II , p. 45.

(١) اختلف المؤرخون المسلمون في اليوم الذى سار فيه أسد الدين شيركوه من دمشق إلى مصر. فقد أورد أبو شامة أن أسد الدين عاد إلى مصر في تاسع ربيع الآخرة (أنظر : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي أحمد ، القاهرة ١٩٦٢ ، جـ١، ق٢ ، ص ٣٦٣). أنظر أيضا: Grousset, R., Hstore des croisades, et du Royame franc de jerusalem , Paris , 1935, t.II , P. 479; Schlumberger , G. Campagnes du roi Anaury, 1er de jerusalem en Egypte au x11e siecle , Paris , 1906 , P. 322. Rohricht, R., Geschichte des konigreichs jerusalem innsbruck, 1898, p. 322, n. 2 , stevenson, W.B. The crusaders in the East , Beirut, 1968 , p. 191).

وفى ابن الجوزي وابى المحاسن، في منتصف ربيع الأول (أنظر : مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، الهند ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م ، جـ٨ ، ص ٢٦٨: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ١٩٣٦، جـ٥، ص ٣٤٨) ، وفى ابن شداد، فى اثنى عشر ربيع الأول (أنظر : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣٧ وحاشية رقم ٥) ، وفى ابن الأثير، فى شهر ربيع الآخر دون تحديد اليوم . (أنظر : الكامل في التاريخ، مطبعة الاستقامة بالقاهرة، جـ٩ ، ص٩٥)، أما ابن واصل فقد ذكر أن شيركوه سار إلى مصر فى ربيع الأول . أنظر : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ م ، جـ١ ، ص ١٤٨ وكذلك :

Setton A history of the Crusades , t.I, p. 552.

(٢) ابن شداد: ص ٣٧ ، أبو شامة : جـ١ ، ق٢ ، ص ٣٦٣ -٣٦٤، أبو المحاسن : جـ٥ ، ص٣٤٨، ابن العديم : زبدة الحلب فى تاريخ حلب ، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٥٤ ـ جـ٢، ص ٣٢٢، ابن العبرى : تاريخ الزمان ، تحقيق اسحق أرملة ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ١٧٨ ، ابن واصل : جـ ١، ص١٤٩. ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ١٣٢ ، الكامل فى التاريخ ، جـ ٩ ، ص ٩٥ (والجدير بالملاحظة أن أبا شامة نقل أحداث حملة شيركوه الثانية على مصر نقلاً يكاد يكون حرفياً عن ابن الأثير. قارن : التاريخ الباهر ، ص ١٣٢ – ١٣٣ مع الروضتين ، ص ٣٦٣ – ٣٦٧ . أنظر أيضاً Stevenson , W.B., The crusaders in the east, beirut , 1968 , p. 191, grousset , t.II P479,: Schlumberger, P. 102, Rohricht, P. 322.

(٣) William of Tyre, t.II , P. 299 ، أنظر أيضا: وليم الصوري : ترجمة حبشي، جـ٤، ص ٢٠، ترجمة زكار ، جـ٢ ، ص ٨١١.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الماء خزنها في القرب والروايا[١]. وتسامع الناس بالأمر ووصل خبره إلى شاور، فأرسل إلى آموري يستنجده [٢]. وكان آموري[٣] في نابلس ينظر في أمر المعركة الدائرة عند بانياس[٤]، هذا بينما لجأ نور الدين محمود بن زنكي ، منذ فعل في حملته الأولى على مصر سنة ١٠٦٤م/ ٥٥٩هـ إلى أن يلتمس من شقيقه قطب الدين مودود أتابك الموصل مساندته بقواته، وأن يشن غارة واسعة النطاق، وان ينزل الخراب أراضي طرابلس . كذلك استولى نور الدين محمود على المنيطرة[٥].

عقب ذلك، سارت حملة شيركوه وتقدمت عن طريق الصحراء الشرقية لنهر الأردن، حماية لها من جنود القدس وحصونها، وسار نور الدين معها يحميها حتى اقتربت من حدود مصر. وحرص شيركوه على أن لا يتخذ الطريق الساحلي المؤدي إلى مصر، خوفاً من

---

(١) William of Tyre, t. II, p. 314 ; Willermus Tyrensis, p. 904 Cf. Grousset, t.II, P. 479 ; Schlumberger, p. 107.

أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤ ، ص ٤٠ ، وليم الصوري ، ترجمة سهيل زكار، ص٨٩٦.

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر، ص ١٣٢ ، الكامل في التاريخ، جـ ٩، ص٩٥، أبو شامة: جـ١، ق٢، ص٣٦٤، ابن شداد: ص ٣٧ ، ابن العديم : جـ٢ ، ص ٣٢٣ ، العماد الأصفهاني : سنا البرق الشامي ـ تحقيق فتحية النبراوي، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٢٠ ، أبو المحاسن : جـ٥، ص ٣٤٨ ، ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٢١٢ ، تاريخ الزمان ، ص ١٧٨ ، ابن واصل : جـ١ ، ص ١٤٩، اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان ، الهند ١٣٣٧ هـ، جـ ٣، ص ٣٤١. أنظر أيضاً: Recueil des historiens des croisades , historiens orientaux, t.IV, le Livre des deux jardins, p.110.

(٣) في المصادر الإسلامية " مرى " (أنظر : أبو المحاسن : جـ٥ ، ص٣٤٨-٣٤٩، أبو شامة : جـ١، ق٢، ص ٤٢٤ - ٤٢٧) أما في الغالبية العظمى من المراجع المتداولة فقد ورد على شكل " عموري" علماً بأن صاحب الاسم نفسه Amaury لا يعرف نطق حرف "ع " وصحة كتابة اسمه " آموري " وليس عموري أو غيره .

(٤) تقع قلعة بانياس في سفح جبل الحرمون (أنظر : ابو شامة : جـ١، ق٢، ص٣٥٦، حاشية رقم ٣) وللتفاصيل عن فتح نور الدين قلعة بانياس ، أنظر : أبو شامة : جـ١، ق٢ ، ص ٣٥٦، ابن الأثير: التاريخ الباهر ، ص ١٣٠-١٣١ ، الكامل في التاريخ ، جـ٩، ص٨٧ . وقد فصل وليم الصوري الحديث عن موقعها وتاريخها . انظر وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٣٤-٣٥، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٨٩٠ -٨٩١، وكذلك William of tyre , t.II, PP. 309-310.

(٥) للتفاصيل أنظر : ابن شداد ، ص ٣٨، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، جـ ٩،ص ٩٤، التاريخ الباهر، ص ١٣٠-١٣١، أبو شامة : جـ١ ، ق١ ، ص ٣٦٠. والمنيطرة : حصن بالشام قريب من طرابلس (أنظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، طبع ليبنزج ، جـ٤، ص ٦٧٣، أبو المحاسن : جـ٥، ص٣٥٠، حاشية رقم ١) .

ويقع على الطريق الممتد من جبيل إلى بعلبك ، أنظر أيضاً : Rey , E.G., les colonies , franques de Syrie, Paris, 1883 , p. 513.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الصليبيين ، بل سلك طريقا موازيا له، يقع إلى الجنوب منه شمال صحراء التيه. فقد أورد وليم الصوري أن شيركوه بدأ سيره عبر الصحاري سالكا الطريق الذى سلكه بنو إسرائيل حين دخلوا أرض الميعاد[١]. ولم يكن مسير شيركوه بالسهل الذلول، فقد هبت على جيشه عاصفة رملية شديدة ، كادت تودي به وتطمره. فترجل جنده عن جيادهم وانطرحوا على الأرض معتصمين بها، وظلوا أياما هائمين على وجوههم وضلوا الطريق. ونتج عن تلك الزوبعة أن تفقت جمالهم، وضاع الجانب الأعظم من مئونتهم، وهلكت طائفة كبيرة من رجالهم[٢]. ومع ذلك فقد اجتاز الصحراء واتجه صوب الجنوب الغربي فى أوائل فبراير سنة ١١٦٧م/ ربيع الثاني سنة ٥٦٢هـ حتى بلغ نهر النيل عند أطفيح[٣]، على مسافة سبعين كيلومتر جنوبي القاهرة[٤] ثم واصل زحفه فى اتجاه الجنوب إلى أن وصل إلى شرونة[٥]. عقب ذلك عبر إلى الضفة الغربية، فالتزمها فى سيره حتى بلغ الجيزة [٦]، فعسكر فيها قبالة

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 904, William of Tyre, t.II, P. 314. Cf. Grousset , t.II, P. 479; Schlumberger, P. 111 .

أنظر أيضا: وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ ٤ ، ص ٤٠ ، وليم الصوري: ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٨٩٥.

(٢) Willermus Tyrensis, t.I, PP. 907-908, William of Tyre , t.II, P. 317, Cf. Grousset, t.II, P. 479, Schlumberger, P. 113.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ ٤، ص ٤٤-٤٥، وليم الصوري، ترجمة سهيل زكار ، جـ٢، ص ٨٩٨ - ٨٩٩.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩، ص ٩٥ ، التاريخ الباهر، ص ١٣٢، أبو شامة : جـ١، ق٢ ، ص ٣٦٤، انظر أيضا : Willermus Tyrensis, t. I, P.904, William of Tyre, t.II, P.315.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤ ، ص ٤١، وليم الصوري : ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٨٩٦. وكذلك : Grousset, t.II, P. 479, Schlumberger, P.111. وتقع أطفيح على الضفة اليمنى لنهر النيل.

أنظر : البغدادي : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، جـ١، ص ٩٢، وكذلك Schlumberger, P.111 وهى من المدن المصرية القديمة بمركز الصف فى محافظة الجيزة. عنها أنظر محمد رمزي: القاموس الجغرافي ، ق٢ ، جـ٣، ص ٢٥، على مبارك : الخطط التوفيقية ، جـ٨، ص ٧٧-٧٨.

(٤) Grousset, t.II, P. 479.

(٥) Grousset, t.II, P. 479; Schlumberger , P. 112.

و " شرونة " قرية بالصعيد الأدنى، شرقى النيل ، أنظر : ياقوت ، معجم البلدان، جـ٥ ، ص٢٥٩، البغدادي، جـ٢ ، ص ٧٩٤.

(٦) Willermus Tyrensis, t.I, P. 904, William of Tyre t.II, P. 315. Cf. Grousset, t.II , P. 479; Schlumberger, P. 114.

أنظر أيضا: وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٤١، وليم الصوري: ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٨٩٦. وكذلك : ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩، ص٩٥، التاريخ الباهر ، ص ١٣٢ ، أبو شامة: جـ١، ق ٢ ، ص ٣٦٤. =

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الفسطاط [١]، وتصرف فى البلاد الغربية وحكم عليها، وأقام فيها يوماً. واستمال قوماً يقال لهم الأشراف الجعفريون والطليحيون والقرشيون [٢].

وكان شاور ــ لما علم بقدوم شيركوه ــ راسل الصليبيين يستغيث بهم ويستصرخهم[٣]ــ كما سبق أن ذكرنا ــ ولم يكن ذلك إلا خيانة عظمى لن يتسامح فيها نور الدين ونوابه. ولما تلقى آمورى طلب شاور ، عقد بنابلس اجتماعاً عاماً حضره بطريرك بيت المقدس وبارونات المملكة ورؤساء الأساقفة والأساقفة وغيرهم من رجال الكنيسة، وشرح لهم مدى الخطر الذى يهدد مملكة بيت المقدس الصليبية، وطلب منهم المعونة والمساعدة فى مواجهة تلك الأخطار المحدقة بكيانهم، "ورسم خطة تؤدى إلى إفساد خطط الخليفة العباسي"، على حد قول وليم الصورى [٤] ، ورد محاولات نور الدين وقائده شيركوه غزو مصر. فوافق الحاضرون على توجيه حملة كاملة العدد والعدة لإنقاذ شاور وإبعاد شيركوه للمرة

= والجيزة : معناها الناحية والجانب، وجمعها جيز : جانب الوادي، وقد يقال فيه الجيزة ، أنشأها العرب سنة ٢١هـ / ٦٤٢م على الشاطئ الغربي للنيل وسموها الجيزة لأنها فى المكان الذى اجتازوا فيه نهر النيل بين الفسطاط وبين جانب الوادي الغربي الممتد من الجيزة إلى الجبل. وكانت مدينة الجيزة فى عهد العرب قاعدة لكورة الجيزة ، وفى عهد المماليك قاعدة للأعمال الجيزية ، وفى عهد العثمانيين قاعدة لولاية الجيزة التى سميت مديرية الجيزة فى سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣م. أنظر : أبو المحاسن: جـ٥، ص ٣٤٨، حاشية رقم ١، ابن الديم : جـ ٢ص ٣٢٣ ، حاشية رقم ١، البغدادي: جـ١، ص٣٦٧.

(١) Grousset, t.II, P. 479 , Schlumberger, P. 114.

(٢) ابن الأثير : الكامل، جـ ٩، ص ٩٥، التاريخ الباهر، ص ١٣٢، أبو شامة : جـ١، ق٢، ص ٣٦٤ – ٤٢٥.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩، ص ٩٥، التاريخ الباهر ، ص ١٣٢، أبو شامة: جـ١، ق٢، ص ١٤٣. أنظر أيضاً : Grousset, t.II, P.479;: وكذلك، Beha ED Din , In R.H.C., Hist. Or., t.III, P.44 Schlumberger, P. 108, Wiet , G. Histoire de la nation Egyptienne, Paris, 1926, t.IV, p. 295.

والجدير بالملاحظة أن وليم الصورى أورد أن شاور الوزير الفاطمي (ويسميه سلطاناً) انتابه الفزع حين ظهر الصليبيون فجأة دون أن يستدعيهم، وخاف أن يوجه هذا الزحف الحربي ضده هو ذاته. وهكذا خلط بين أحداث حملة شيركوه الثانية وحملته الثالثة. ويواصل سرده قائلاً : " ومع انه كان يعلم بالسبب الذى حدى بنا للحضور، إلا انه لم يطمئن إلى صدق ما علم . وانتهى به الأمر إلى إرسال كشافته إلى الصحراء يأتونه بالنبأ اليقين حول حركات العدو : فأنبأوه أن جيش شيركوه وصل إلى أطفيح، فتعجب من شدة وفاء الصليبيين وانثنى عليهم " . أنظر Willermus Tyrensis, T.I, P.904, William of Tyre, t.II, P. 315.

وكذلك : وليم الصورى: ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٤١، وليم الصورى: ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص٨٩٦.

(٤) Willermus Tyrensis, t.I, P.904; William of Tyre, t.II, P. 315.

أنظر أيضاً : وليم الصورى ، ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ٤٠ . وليم الصورى : ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٨٩٥.

وكذلك : Schlumberger, PP. 104-105; Grousset, t.II, P. 480.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الثانية عن مصر . وكان لابد أن تشترك فى الحملة الصليبية المرتقبة كل القـــوى الضاربـــة بمملكة بيت المقدس الصليبية ، فضلا عن اتخاذ مواضعها لدرء ما يجري من هجمات من قبل نور الدين أثناء غياب الملك الصليبي. كذلك تم الاتفاق على أن يدفع كل فرد جزءا من عشـرة من أملاكه العينية إنقاذا للمملكة الصليبية(١).

هكذا استجاب آموري لطلب شاور وحشد جيشا ضخما لمناصرته فى حملـــة صليبيـــة جديدة، وقد حمله على ذلك مبررات : الأول دافعه الأمل، إذا كان يحلم ــ كما حلم من قبل من سبقوه على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية ــ بغزو مصر وضمها إلى رقعة مملكة بيـت المقدس الصليبية. أما المبرر الثاني: فكان على نقيض الأول تماما، إذ كان يخشى من غزوهـا من قبل شيركوه، وضمها إلى البلاد الشامية بعد توحيد الشام ومصر. وهكذا سـيصبح بيـن السندان والمطرقة، إذ ستكون مملكته مطوقا شرقا من قبل جيوش نور الدين، وجنوبا وغربـا من قبل قائده شيركوه، وسيترتب على ذلك اقتلاع الوجود الصليبي من بيت المقـدس وبـلاد الشام. غير انه حدث قبل أن يكتمل الجيش الصليبي ، أن وردت الأنباء بأن شـيركوه سـبق آموري فى اجتياز صحراء سيناء بصحبة قوافل الجمال التى كانت تحمل مؤن تكفـي لسـد احتياجات جيشه لأيام طويلة ، إضافة إلى كميات وفيرة من الماء . فلم يسـع آمـوري إلا أن يحشد كل ما استطاع حشده من الفرسان، وأسرع بالخروج لمواجهة شيركوه وصده. غـير أن ذلك جاء متأخرا(٢).

على أية حال، احتشدت القوات الصليبية، من المشاة والفرسان فى عسقلان. وفـي ٣٠ يناير سنة ١١٦٧م (٣)/ ٧ ربيع الثاني سنة ٥٦٢هـ ، ارتحلت قاصدة مصر، بعد أن توافر لها

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P.904; William of Tyre, t.II, P.314.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٤٠ ، وليم الصوري : ترجمة سهيل زكـار، جـ٢، ص ٨٩٥. وكذلك Grousset, t.II, P. 480; Schlumberger, PP. 105-106; Runciman, St., A History of The Crusades, Cambridge, 1954, t.II, P. 372.

(٢) Willermus Tyrensis, t.I, P. 904; William of Tyre, t.II, p.314.

وأنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٤٠، وليم الصوري : ترجمة سهيل زكـار، جـ٢، ص ٨٩٥. وكذلك : Grousset, T.II, P. 481; Schlumberger, P. 106, Runciman, t.II, p.372.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, P. 905, William of Tyre, t.II, P. 314.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي، جـ٤، ص ٤٠-٤١، وليم الصوري: ترجمة سهل زكار، جـ٢، ص ٨٩٦. وكذلك : Grousset, t. II, P. 481, Schlumberger, PP. 106-107.

وقد ورد فى مصدر وليم الصوري المنشور فى"مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية-المؤرخون الغربيـــون مايلي: Recueil des Historiens Des Croisades Historiens Occidentaux"lors fist li Rois Fere" Une Grant semonse par toute sa terre de gent a Cheval et A pie. Mout ot Grant Assemblee A Escalonne ou Il Vindrent Tuit".

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من المؤن ما يكفي أثناء السفر. واجتاز الجيش الصليبي الصحراء الشاسعة الممتدة بين غـــزة وبلاد مصر، بعد أن توقف في العريش ينتظر قدوم من تبقى من العساكر ، مضى في طريقـه حتى بلغ بلبيس والتقى آموري أثناء المسير برسل من قبل شاور، أعلنت عن اســتعداده لبــذل أموال الخليفة الفاطمي والدولة للصليبيين، والاستجابة لرغبات الملك، الذي أصبح قادراً علـى تحقيق كل ما كان في حاجة إليه بفضل هذه الأموال(١).

ولما وصل الفرنج مصر، اجتمعوا بالعساكر المصرية، وصحبهم شاور(٢) إلى موضـــع يقع على مسافة ميل جنوب القاهرة، فأقاموا معسكرهم بهذا المكان علـــى الضفـــة الشـــرقية للنيل(٣). على حين أن شيركوه ــ كما سبق القول ــ كان قد عسكر بجيوشه علـــى الضفـــة الغربية للنيل ، في الجيزة، في مواجهة المعسكر الصليبي(٤).

عقب ذلك ، تلقى شاور الدعوة من شيركوه بعد اجتيازه النيل ونزوله بـــالجيزة، وقبـــل الالتحام في القتال مع الصليبيين وقوات شاور، ورد فيها عهد شيركوه وميثاقـــه. إذا اعتقـــد شيركوه انه يستطيع أن يؤثر في شاور ويجذبه إلى صفه إذا هو تحدث إليه حديـــث المســـلم الصادق لأخيه ، فبعث إليه يقول :

" أنا ألطف لك بالله الذي لا إله إلا هو، وبكل يمين يثق بها المسلم مـــن أخيه، أنني لا أقيم ببلاد مصر، ولا أعاود إليها أبداً، ولا أمكن أحداً مـــن التعرض إليها ، ومن عارضك فيها، كنت منك إلباً عليه ، وما أؤمل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهوان العدو، وقد حصل بهذه البلاد، والنجدة عنه بعيدة وخلاصه عسير. وأريد منك أن نجتمع أنا وأنت عليه، وننتهز فيـه

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 905; William of Tyre, t.II, P.315.

أنظر أيضاً: وليم الصوري: ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص٤١، وليم الصوري:ترجمـــة سـهيل زكـــار، جـــ٢، ص ٨٩٦. وكذلك: Grousset , t.II, P. 481; Schlumberger, PP. 107-109.

(٢) آنذاك ، وصف وليم الصوري شاور بأنه اشتهر ببعد النظر، إلا أنه أبدى في هذه المناسبة جبنـــاً شـــديداً وجهلاً فاضحاً. أنظر :Guillaume of Tyre, t.II, P. 315 . وكذلك : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي، جـــ٤، ص٤١، ترجمة زكار، جـــ٢، ص ٨٩٧.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, PP. 905-906; William of Tyre, t.II, P. 315.

أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـــ ٤، ص ٤٢، وليم الصوري: ترجمة سهيل زكـــار ، جـــ٢، ص ٨٩٦-٨٩٧، وكذلك : Grousset, t.II, p. 481; Schlumberger, PP. 109-110.

(٤) Willermus Tyrensis, t.I, P.904; William of Tyre, t.II, P. 315.

أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـــ٤، ص ٤١، وليم الصوري : ترجمة سهيل زكـــار، جـــ٢، ص ٨٩٦ وكذلك : Grousset, t.II, P. 481; Schlumberger, PP. 113- 114, Runciman, t.II, P.373.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هذه الفرصة التى قد أمكنت والغنيمة التى قد كتبت ، فتستأصل شـــأفته ونخمد ثائرته، وما أظن انه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً[١]".

ولكن شاور كان عديم العاطفة والضمير. لقد كان رد السفيه الجامد القلب الجاحد النفس أن قتل رسول أسد الدين شيركوه، ومضى إلى حلفائه الصليبيين أعداء بلاده، فأطلعهم علـــى رسالة شيركوه مؤكد لهم إخلاصه لهم وتفانيه فى خدمتهم [٢]! بينما أبدى قائد جيش نور الدين أسفه الشديد ، فلو أطاعه الخائن شاور ، لم يبق ببلاد الشام أحد من هؤلاء الصليبيين.

عقب ذلك، أخذ آموري ــ المحب للمال [٣]ــ يساوم شاور على ثمن معاونته، فأجابـــه هذا إلى ما طلب ، فتم الاتفاق بين الطرفين، وبمقتضاه تعاهد شاور، إذا بقى الصليبيون فـــى مصر حتى يتم طرد جيش شيركوه، بأن يؤدى لهم أربعمائة ألف دينار ذهبي[٤]، يدفع النصف سلفاً، وما تبقى يؤدى فى موعد يجرى تحديده. ومن النصوص الواردة فى هذه الاتفاقيـــة : " انه يتحتم على الملك آمورى ، بأن يتكفل بقوته، وفى إيمان خالص، ودون غش أو خـــداع أو نية سيئة ، بألا يرتحل من إقليم مصر ، إلا بعد تدمير جيش شيركوه وجميـــع عســـكره، أو طرده نهائياً من البلاد[٥] " .

---

(١) أبو شامة : جـــ١، ق ٢، ص ٣٦٥. أنظر أيضاً Grousset, t.II, P. 486; Schlumberger, PP. 114-116.

(٢) Grousset, t.II, P. 486; Schlumberger, PP. 115-116.

(٣) انتقد وليم الصوري حب سيده آموري للمال حتى انه كان أكبر مما قد يحتاجه أو مما يكون حقاً مشروعاً له، وأورد انه كان يحصل عليه تارة فى صورة هدايا، وتارة أخرى يتحصـــل عليـــه بطـــرق تخـــالف مقتضيات العدالة والإنصاف. ثم يذكر وليم الصوري أنه دار حديث بينه وبين ملك مملكة بيت المقـــدس الصليبية آموري برر فيه سبب جشعه للمال، بل وأوصى كل حاكم أن يسير على خطاه. وأختتـــم وليـــم الصوري حديثه باتهام سيده بالتصوصية إذ قال أن أموال رعاياه كانت أبعد ما تكون عن الأمان ، لأنـــه كان يغتنم الفرصة بين آن وآخر، ويتذرع بأتفه الذرائـــع لاغتصـــاب ممتلكاتـــهم : للتفـــاصيل أنظـــر: Willermus Tyrensis, t.I, P.903; William of Tyre, t.II, P.298.

(٤) فى الترجمة العربية لوليم الصوري التى أعدها حسن حبشي " أربعة آلاف دينار " (انظـــر : الحـــروب الصليبية ، جـــ٤، ص ٤٦) وفى جستاف شلمبرجيه Gustave Schlumberger "le roi recevrait quarante mille besants, c'est – a –dire, quarante mille dinars d' Or".

وترجمتها " يؤدى للملك أربعين ألف بيزنت، أى أربعين ألف دينار ذهبي " (أنظر : Les Campagnes du roi Amaury, P.110 علماً بأن كتاب شلمبرجيه يعد أحسن وأكمل ما كتب عن حمـــلات الملـــك الصليبـــي آموري على مصر. وبليه فى الأهمية كتاب رينيه جروسيه Rene Grousset تاريخ الحـــروب الصليبيـــة ومملكة الفرنجة فى بيت المقدس : Histoire des Croisades et du Royaume Franc De JErusalem, t.II, PP. 478-503. وصحة ذلك ما أثبتناه فى المتن : راجع : Willermus Tyrensis, t.I, P.909; William of Tyre, t.II, P.318. Cf. Grousset, t.II, p. 482.

(٥) Willermus Tyrensis, t.I, P. 909. William of Tyre, t.II, P.318.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

هكذا أقسم آموري بألا ينسحب من مصر إلا إذا ألحق الهزيمة الساحقة بجيش شيركوه أو نجح في طرده منها. وبذلك جعلت تلك الاتفاقية من الصليبيين حماة مصر والخلافة الفاطمية، بينما يذكر رينيه جروسيه René Grousset أن شاور نظر إلى الجيش الصليبي — بموجب تلك الاتفاقية — على انه جند مرتزقة مرجعا ذلك إلى الجزية الطائلة التي فرضها عليه آموري [١].

وقد طلب آموري أن يرسل وفدا من رجاله لمقابلة الخليفة الفاطمي العاضد (٥٥٥-٥٦٧ هـ / ١١٦٠ - ١١٧١م) لتصديقه على هذه الوثيقة، مما يؤكد عدم وثوقه في شاور. وأجيب إلى طلبه. وأنفذ الملك آموري إلى القاهرة كلا من هيج (١١٥٤ - ١١٦٨م) Hugues أمير قيسارية[٢] Cesaree ، وبصحبته فارس من الداوية اسمه جودفروا فولشر [٣] Godefroi Foulcher. كان فيما يبدو يجيد التحدث باللغة العربية ، وكلفا بالحصول من الخليفة الفاطمي على الموافقة الرسمية على المعاهدة سالفة الذكر. وأراد هيج أن ينهي التصديق على العقد على الطريقة المعروفة في الغرب الأوربي وذلك بمصافحة يد الخليفة. غير أن رجال البلاط الفاطمي استاءوا من هذا التصرف، فلم يسع الخليفة إلا مصافحته بعد أن نزع القفاز[٤].

=أنظر أيضا : وليم الصوري : الحروب الصليبية ترجمة حسن حبشي ـ جـ٤، ص ٤٦، وليم الصوري: الحروب الصليبية ، ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٨٩٩ وكذلك: Grousset, t.II, P.482; Schlumberger, p.117.

(١) Grousset, t.II, p. 482.

(٢) أسس أستاش جارنييه Eustache Garnier أسرة كونتات قيسارية Cesaree. فعقب الغزو الصليبي لقيسارية عين أميرا عليها وذلك سنة ١١٠١م، ثم على صيدا أيضا وذلك سنة ١١١١م، وفي سنة ١١٢٣م، أسر بدوان الثاني Baudouin II ملك مملكة بيت المقدس الصليبية ، فأصبح استاش وصيا على المملكة. وبوفاته في نفس عام توليه الوصاية، أي سنة ١١٢٣م، خلفه ولديه جوتييه Gautier في قيسارية وجيرار Gerard في صيدا، وقد أشير إلى جوتييه أثناء الحملة الصليبية الثانية. وبوفاة هذا الأخير ، خلفه ابنه هيج Hugues الذي ترأس السفارة إلى بلاط الخليفة العباسي العاضد (للتفاصيل أنظر: Du Cange: Rey Les Familles D'outre Mer , Paris, 1869, P. 431.) . وقد مدحه وليم الصوري قائلا : إنه كان شابا على جانب كبير من العقل والحكمة الرائعة وحسن التصرف لا يتوقعها أحد في مثل عمره: أنظر: William of Tyre, t.II, P. 318. ، Willermus Tyrensis, t.I, P.909.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٤٦ (وقد أورد هيج صاحب " قيصرية " الواقعة في آسيا الصغرى ، وصحتها " قيسارية " فلسطين) وليم الصوري : ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٨٩٩.

(٣) يسميه وليم الصوري في مصدره المنشور باللاتينية في " مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية المؤرخون الغربيون (R.H.C., H.Occ) " جوفريدوس فولشيري" Gaufredus Fulcherii وذكر أنه فارس من الداوية. إذ جاء في هذا المصدر اللاتيني الذي يعد أهم مصادر الحملة وأكثرها إسهابا على الإطلاق، جاء فيه : Willermus Militiae Templi" ; Tyrensis, t.I, P. 909. أنظر "Gaufredus Fulcherii, Frater,

(٤) للتفاصيل أنظر : =Willermus , Tyrensis, t.I, PP. 910-912; William of Tyre , t.II, PP. 319-321

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وانسحب الرسولان وقد اشتد تأثرهما بما زخرت به الخلافة الفاطمية من مظاهر الثروة والترف [١]، حتى أن المؤرخ الصليبي إرنول Ernoul أشار إلى انه لم يفق بلاط الخليفة الفاطمي بالقاهرة فى الثروة سوى بلاط الإمبراطور البيزنطي بالقسطنطينية [٢].

والجدير بالتسجيل أن المبعوثين الصليبيين وصفاً ما رأياه لوليم الصوري Guillumue De Tyr مؤرخ مملكة بيت المقدس الصليبية، فرواه فى مصدره التاريخي المعنون " تاريخ الأعمال التى تمت فى بلاد ما وراء البحر منذ وقت خلفاء محمد (صلى الله عليه وسلم) حتى عام ١١٨٤ من الميلاد " Historia rerum in Partibus Transmarini Gestarum A tempore successorum mahumeth usque ad annum domini mcl xxiv".

والذى ترجم إلى الإنجليزية تحت عنوان "A History of Deeds done Beyond the sea"، رواه على صورة يخيل لقارئها أنه يتحدث عن قصور ألف ليلة وليلة[٣]، إذ جاء فى هذا المصدر الصليبي الوحيد الذى انفرد بذكر تفاصيل حملة شيركوه الثانية على مصر، وصفاً تفصيلياً لما حدث من إجراءات تصديق الخليفة الفاطمي على هذه الوثيقة وشرح انه استمد وصف القصر الفاطمي، وهيئة الخليفة ، وثروته، وأبهة ملكه وعظمته من روايات الذين تسنى لهم مقابلة الخليفة. وبالتالي زودنا بوصف أبهاء القصر، والحرس ، والنافورات ، والحدائق التى قامت بها حظائر الحيوانات والطيور الضارية ، ووصف القاعات ، وما ازدانت به من الستائر المصنوعة من الحرير الموشاة بالذهب، والمرصعة بالجواهر، حتى انتهى المبعوثان إلى ستارة كبيرة مزركشة بالذهب ، انفرجت عن الخليفة الصبي جالساً ملثماً على سرير الملك المصنوع من الذهب، وحوله طائفة من مستشاريه وعبيده. وبعد انصراف المبعوثين أرسل الخليفة إليهما الهدايا والتحف تعبيراً عن سخائه الملوكي، فترك هذا انطباعاً جيداً لديهما أثناء وبعد رحلة العودة [٤].

=أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤ ، ص ٤٦-٥٠ ، وليم الصوري : ترجمة سهيل زكار ، جـ٢، ص ٩٠٠-٩٠٢. وكذلك: Grousset, t.II, PP. 482-486; Schlumberger, PP. 116-124; Michaud, t.II, P. 46.

(١) Willermus Tyrensis, t.I, PP. 910-911; William of Tyre, PP. 319-320.

أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٤٦-٤٩: وليم الصوري : ترجمة سهيل زكار ، جـ٢ ، ص ٩٠٠-٩٠١ وكذلك: Grousset, t.II, PP. 482-486; Schlumberger, PP. 118-123.

(٢) Ernoul , P. 19.

(٣) Grousset, t.II, P. 482.

(٤) Willermus Tyrensis, t.I, P. 913; William of Tyre, t.II, P.320.

أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٥٠، وليم الصوري: ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص٩٠٢. وكذلك : Grousset, t.II, P. 913; Schlumberger, P. 125.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

والجدير بالتسجيل فى هذا الصدد، أن شاور صاحب المبعوثين الصليبيين حين زارا بلاط الخليفة الفاطمي، وأراد ــ بخبثه البالغ ــ أن يظهر للصليبيين مدى ثراء مصر والخليفة الفاطمي، حتى يحظى بمساعدتهم الحيوية فى إجلاء شيركوه عن مصر، لتخلو له الساحة فى تسيير أمور الخلافة الفاطمية، تحت حماية ومساندة الصليبيين . علماً بأن آموري كان قد اهتم بغزو مصر منذ أن تولى حكومة عسقلان بعد سقوطها فى أيدي الصليبيين سنة ١١٥٣م. كذلك كان يريد أن يدعم عرشه بغزو جديد، لذا سار لأول مرة إلى مصر فى سبتمبر سنة ١١٦٣م/ ذى القعدة سنة ٥٥٨ هـ. وزاد من هذا الاهتمام نجاح نور الدين محمود فى توحيد القوى الإسلامية تحت زعامته ، وبالتالي أدرك بثاقب بصره وبصيرته انه إذا سقطت مصر فى أيدي المسلمين السنة فى بلاد الشام، سيكون من السهل عليهم تطويق الإمارات الصليبية وإسقاط مملكة بيت المقدس الصليبية كما سبق أن أشرنا. يضاف إلى هذه الاعتبارات الحربية ما كان لمصر من مركز تجاري هام ، كذلك ينبغي أن نضع فى الاعتبار أن آموري كان محباً للمال ودائم السعى إلى المزيد.

على أية حال تلى عقد الاتفاقية والتصديق عليها من قبل الخليفة الفاطمي، أن تجهزت القوات الصليبية والفاطمية للمسير لقتال أسد الدين شيركوه. وسبق القول إن شيركوه استطاع أن يصل على مراكب ، وعدى بها إلى البر الغربي وسار بجيوشه إلى الجيزة [١]، بينما أقام شاور معسكره فى اللوق والمقس بالقرب من الأزبكية الحالية[٢]، وأمر بعمل جسر بين الجيزة وجزيرة الروضة ، وإذ ذاك ، أمر الملك آموري بإحضار المراكب وجذوع أشجار النخيل الموجودة هناك بكثرة ، وبنى من ذلك كله جسراً. وتألف ذلك الجسر من مراكب متراصة، ربط كل اثنين منهما بعضهما ببعض بالهلب، ثم ألقى عليها الألواح من الخشب ، وتلى ذلك تغطيتها بالتراب، وزاد فى مناعة هذا الجسر ما انتصب عليه من أبراج من الخشب مزودة بالآلات والأدوات الحربية ، واستمر الصليبيون فى هذا العمل بضعة أيام، ولم يمتد هذا الجسر إلى أكثر من منتصف النهر، ثم توقفوا خوفاً من أن يحول جيش شيركوه بينهم وبين مد الجسر إلى الشاطئ المواجه وتوقفت الأعمال الحربية لأكثر من شهر ، لعجز الصليبيين عن عبور النهر ، تجنباً لغارة قد يشنها جيش شيركوه على مؤخرتهم ، إضافة إلى ما تعرض له العمال والصناع من قذف السهام التى يرسلها رماة شيركوه[٣].

---

(١) ابن الفديم : جـ ٢ ، ص ٣٢٣ أنظر أيضاً : Grousset, t.II, P. 486.

(٢) أبو شامة : جـ١، ق٢ ، ص ٣٦٤، وكذلك : Grousset , t.II, P. 486, n.3.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I., P. 918; William of Tyre, t.II, PP. 325 – 326.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٥٤، وليم الصوري : ترجمة سهيل زكار، جـ٢ ، ص ٩٠٥- ٩٠٦ وكذلك : Grousset, t.II, PP. 486-487; Schlumberger, PP., 126-127.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وفى خلال فترة الهدوء هذه التى استمرت لشهر أو أكثر ، توقفت جميع أعمال المقاومة لأن الصليبيين أصبحوا عاجزين من جانبهم عن عبور النهر، كما أن شيركوه لم يجرؤ على القيام بمثل هذا العمل، تجنبا لغارة تشن على مؤخرة جيشه [١]، وكان شيركوه قد أرسل طائفة من جنده للاستيلاء على جزيرة مجاورة فى شمال القاهرة حددها كل من رينو ورينيه جروسيه بجزيرة المحلة [٢]، زاخرة بشتى أنواع المؤن والثمار، هادفا من ذلك منع الصليبيين من الإغارة عليها فيما بعد أو غزوها، وأنجز جنده المهمة الموكلة إليهم بنجاح[٣]. فما كان من آموري إن أرسل إليها ميلان دو بلانسي [٤] Milon De Plancy والكامل شجاع بن شاور[٥] على رأس فرقة من الفرسان لاستعادة تلك الجزيرة، فلما جاؤها وجدوها وقد فرغ جيش شيركوه حالا من احتلالهم إياها ، وأنهم كانوا يسيئون معاملة السكان، إذ كانوا يسومونهم المذلة -على حد زعم وليم الصوري - فهاجموهم على الفور، وتمت مواجهة ضارية بين الطرفين استمرت لعدة ساعات وانتهت بانتصار الصليبيين ، بعد أن نجحوا فى إرغام جيش شيركوه على الاندفاع شطر النهر الذى ابتلعت مياهه الهادرة بعض من أفلتوا من القتل بالسيف. وقتل من عسكر شيركوه بمختلف صور الهلاك خمسمائة مقاتل. فلما سمع شيركوه بتلك الهزيمة،

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 918; William of Tyre t.II, PP. 325-326.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٥٤ ، وليم الصوري: ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٩٠٦ وكذلك Grousset, t.II, P. 487; Schlumberger, P. 127.

(٢) Reinaud, Extrait des Historiens Arabes Relatifs Aux Guerres Des Croisades, P. 414; n.1 Grousset, t.II, P. 487.

بينما يسميها ياقوت " جزيرة مصر " ويعرفها بأنها من محال الفسطاط، وكانت من متنزهات مصر، وللشعراء فيها أقوال كثيرة. أنظر : معجم البلدان، جـ٣، ص ١٠٤ "وفيها بساتين" . البغدادي : جـ١ ص٣٣٣.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, P. 918; William of Tyre, t.I, P. 326.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص٥٤، ترجمة زكار ، جـ٢ ، ص٩٠٦ وكذلك Grousset, t.II, P. 487; Schlumberger, P. 127.

(٤) تولى ميلان دوبلانسي Milon de Plancy الوصاية على الملك بدوان الرابع، ويعتبر من القادمين الجدد إلى مملكة بيت المقدس الصليبية ، وكان صديقا حميما للملك آموري وسنشال Senechal أى مستشار المملكة فى عهده ، وكان وليم الصوري يمقته ، وذكر أنه أسوأ مستشار شهدته المملكة الصليبية وقد تسلم الشوبك كإقطاع من الملك آموري بعد زواجه من ستيفاني دوملي Stephanie De Milly وقد أوصى آموري قبل وفاته بأن يكون ميلان دو بلانسي وصيا على ابنه انظر : Grousset, t.II, P.487, N. 1. Sybel, The History and Literature of The crusades, London, 1861; P.17.

(٥) كان لشاور ثلاثة بنين : طي ــ وهو الأكبر ، والكامل شجاع وهو الأوسط، وسليمان وهو الأصغر. قتل طي وسليمان ابنى شاور ، وبقى على قيد الحياة الابن الأوسط الكامل شجاع. وقد صدر سجل بتعيينه نائبا للوزارة فى أواخر ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ. وقتل يوم الاثنين رابع جمادي الأولى سنة ٥٦٤هـ. للتفاصيل أنظر : جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ــ المجلد الأول ــ ١٩٦٥ ــ ص ١٥٧ ــ ١٥٩ ، ١٧٠.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

تملكه الغضب واستولت عليه الشكوك ، عن مدى النجاح الذى يمكن أن تحرزه حملته، بينما ارتفعت معنويات الجيش الصليبي إلى أقصاها، فتشجعوا على مواصلة انتصاراتهم [١].

وفى غضون ذلك ، حظى المعسكر الصليبي بدعم عسكري بالغ الأهمية، إذ وصل إلى ساحة القتال بعض كبار قادة مملكة بيت المقدس الصليبية وهما الكونستبل[٢] Connestable همفروا الثاني دو تورون Humfroy II de Toron، وفيليب Philippe صاحب نابلس إضافة إلى بعض البارونات. وكان هؤلاء قد تخلفوا عن مصاحبة الملك آموري لأسباب خاصة لم تذكرها المصادر، إلا أنهم ما لبثوا أن لحقوا بالجيش وانضموا إلى المعسكر الصليبي حيث حيتهم الكتائب بابتهاج كبير، لما ذاع بين العسكر شجاعتهما وبراعتهما فى حمل السلاح واستخدامه ، وتمرسهما على فنون الحرب والقتال منذ نعومة أظافرهما[٣].

وبانضمام هذا الدعم العسكري والحيوي إلى التحالف الصليبي الفاطمي، أمر كل من آموري والوزير الفاطمي شاور بعقد مجلس استشاري عسكري برئاستهما، حيث قررا أنه يجب تسيير الأسطول الصليبي بأكمله فى صمت الليل وسكونه، ودون معرفة جيش شيركوه، على أن يمضى إلى جزيرة فى النيل واقعة أسفل المعسكر الصليبي، على بعد ثمانية أميال تقريبا[٤]. وقد حدد العالم الفرنسي رينيه جروسيه René Grousset ذلك الموضع عند رأس وراق الحضر، فى موضع يقع بين وراق الحضر وورذان[٥].

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 918; William of Tyre, t.II, P. 326.

انظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٥٥، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٩٠٦، وكذلك Grousset, t.II, P. 487 ; Schlumberger, P. 128.

(٢) كان الكونستبل Connestable يمثل أهم منصب فى المملكة بعد الملك مباشرة، إذ كان يشغل منصب نائب الملك الصليبي ، علما بأن هذه النيابة كانت من حق مستشار الملك المسمى سنشال Senechal من الناحية النظرية ومن مهام الكونستبل تنظيم الجيش وإعداده للقتال، وتعيين قادة الكتائب، وكانت كتيبته ضعف الكتائب الأخرى عددا. كذلك أوكلت إليه مهام أخرى . أنظر: Richard, J. The Latin Kingdom of Jerusalem,London, 1972, t.I, P. 77 La Monte Feudal Monarchy in The Latin Kingdom , PP. 117-119.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, P. 919; William of Tyre, t.II, P. 326.

أنظر أيضا:وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤ ، ص ٥٥، ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩٠٦ وكذلك: Grousset, t.II, P.487, Schlumberger, PP. 128-129.

(٤) Willermus Tyrensis, t.I, P. 919; William of Tyre , t.II, P. 326.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٥٥، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٩٠٦ وكذلك: Grousset, t.II, P. 487 ; Schlumberger, P. 129.

(٥) Grousset , t.II, P. 487 ..

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

وقد تم الاتفاق على أن يخرج الجيش فى أول نوبة حراسة ليلية على العبارات فيجتاز النهر ثم يهاجم جيش شيركوه تحت جنح الظلام ويصيبه بأكبر خسارة ممكنة. وصدرت الأوامر لتنفيذ هذه الخطة ، وسرعان ما مضى الأسطول إلى الموضع المتفق على مهاجمته دون أن يكتشفه جيش شيركوه ، وسار الجيش الصليبي فى أثر الأسطول إلىٰ الموضع المتفق على مهاجمته ، والسكون مطبق على الكون تمام الإطباق ، وما لبثوا أن وصلوا إلى هناك، وتم لهم الاستيلاء على الجزيرة.

وبينما كانوا يحاولون اجتياز آخر نقطة فى مجرى النهر للوصول إلى الشاطئ الأيسر وفق الأوامر الصادرة إليهم، هبت فجأة من الغرب ريح عاصفة محملة بالرمال ، حالت بينهم وبين إكمال غرضهم، وأجبروا على إقامة معسكرهم على جزء من الجزيرة كان يواجه الشاطئ الآخر، فى مواجهة الجيزة[1].

وعلى الرغم من تمكن الجيش الصليبي من الاستيلاء على الجزيرة، إلا أن المجرى الأدنى ظل خارج سيطرتهم. فلما أشرق الصباح، أستيقظ جيش شيركوه من نومه ليجد الجيش الصليبي قد رحل ، وأن أسطوله قد لبحر هو أيضا فهب رجاله إلى سلاحهم تحسبا لتعرضهم لهجوم مفاجئ على أيدي الصليبيين. وعندما تقدموا بسرعة، ونشروا عساكرهم على طول النهر رأوا أن القوات الصليبية كانت قد استولت على الجزيرة، وأدركوا أنهم بإدخالهم الأسطول أصبحوا واثقين من عبورهم هذا الفرع دون غيرهم. ومن ثم نصبوا معسكرهم فى الموقع المقابل، وإن كان موقعهم هذا خلف الشاطئ بعض الشئ على الرغم من أنهم بوضعهم هذا لم يعد لهم مجال للوصول إلى النهر، لكنهم كانوا مضطرين للذهاب بعيدا كى تشرب جيادهم[2].

وصمم الصليبيون على تجربة حظهم حتى النهاية فى اليوم التالي ، وأن يشقوا لأنفسهم طريقا بالسيف إذا دعت الضرورة إلى ذلك. غير أن جيش شيركوه كان قد رحل أثناء الليل دون علمهم. فلما تبلج الصبح ، ورأى الصليبيون أن عسكر شيركوه قد انسحبوا، عبروا هم النهر على عجل وأسرعوا يطاردونه . وتخلفت قوات المشاة الصليبية لتتمكن قوات الفرسان

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I. P. 920; William of Tyre, t.II, PP. 326-327.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤ ، ص ٥٥-٥٦، ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩٠٦-٩٠٧ ، وكذلك : Grousset , t.II, P.488; Schlumberger, t.II, PP. 129-130.

(٢) Willermus Tyrensis, t.I, P. 920; William of Tyre, t.II, P. 328.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٥٧-٥٨: ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩٠٨، وكذلك : Grousset, t.II, P. 488 , Schlumberger , PP. 130.-131.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

من التقدم بسرعة أكبر[١].

وما اشتهر به شيركوه من البسالة والشجاعة وروح المغامرة على حد قول وليم الصوري حمل شاور وآموري على أن يتخذا من التدابير ما يمنع شيركوه من القيام بهجوم مفاجئ للاستيلاء على القاهرة. تحقيقا لذلك الغاية ، انطلق الملك الصليبي بصحبة عدد قليل من الفرسان. وأرسل هيج دبلين[٢] Hugues D'ibelinوهو فارس مغوار كان قد تزوج من مطلقة آموري والكامل شجاع بن شاور على رأس قوة كبيرة من الفرسان الصليبيين والمصريين معا لحماية الفسطاط والقاهرة، والدفاع عن الاستحكامات الصليبية القديمة المقامة في مواجهة الجيزة ، وكذا الجسر الذى كان العسكر قد شيدوه حتى لا يتعرض لهجوم معاد مفاجئ، وأوكلت إليهم مسئولية حراسة أبراج مدينة القاهرة وجميع تحصيناتها وكذا حماية الخليفة الفاطمي وأهل بيته[٣]. وهكذا أصبح قصر الخليفة الفاطمي الذى لم يكن معروفا للصليبيين أصبح مألوفا عندهم وكذا حال معالم القاهرة.

وبعد احتلال التحالف الصليبي الفاطمي لمدينة القاهرة، بعث الملك آموري بجيرار دو بوجي[٤] Gerard De Pougy وإينا آخر لشاور [٥] يسميه وليم الصوري " مهادا " Mahada أو " مهادام"[٦] Mahadam إلى الجانب الآخر لنهر النيل أى على الضفة اليسرى فى مواجهة الجسر الذى لم ينته تشييده بعد على رأس قوة من التحالف الصليبي الفاطمي، وصدرت إليهم الأوامر بصد جيش شيركوه والحيلولة دون عبوره النهر والقيام بهجوم مباغت. ولما كان

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 920; william of Tyre , t.I, P. 328.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤ ، ص ٥٨ ، ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩٠٨ وكذلك: Grousset, t.II, P. 488; Schlumberger, P. 131-132.

(٢) هيج دبلين Hugues D'ibelin هو صاحب الرملة والابن الأكبر لبليان Balian تزوج أنيس دو كورتناي Agnes de courtenay مطلقة آموري وذلك سنة ١١٦٤م. أنظر : Grousset, t.II, P. 489, n.1

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, P. 920; William of Tyre , t.II, p. 328.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٥٨ ، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٩٠٨ وكذلك: Grousset, t.II, P. 488; Schlumberger, P. 132; Runciman, t.II, P. 374.

(٤) فى وليم الصوري : الحروب الصليبية ، ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٩٠٨، " جيرار دى بوشي" وصحة ذلك ما أثبتناه.

(٥) ذكر حسن حبشي (الحروب الصليبية لوليم الصوري ، جـ٤، ص ٨٨، حاشية رقم ٥٠) أن مهادا Mahada هذا هو " محيي الدين " وقال إنه ابن شاور . ويواصل سرده قائلا إنه كان لشاور ولدان هما "طي" الذى قتل فى رمضان سنة ٥٥٨هـ و " الكامل " الذى تولى الوزارة نيابة عن أبيه. علما بأن شاور كان له ابنا ثالثا يدعي سليمان وهو الأصغر ولم يبق من الثلاثة سوى " الكامل " . أنظر القيال : ص ١٥٧-١٥٩ ، ١٧٠.

(٦) ذكر سهيل زكار (وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ٢، ص ٩٠٨) أن مهادا هو طي ، علما بأن طي كان قد قتل فى رمضان سنة ٥٥٨هـ، ومن المعتقد أن وليم الصوري يقصد " الكامل شجاع " ابن شاور الوحيد الذى ظل على قيد الحياة حتى قتل يوم الاثنين رابع جمادي الأول سنة ٥٦٤هـ.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الملك الصليبي أموري قد خلف وراءه معظم أثقال الجيش، فقد راح يطارد جيش شيركوه مطاردة في عكس اتجاه جريان النهر لأن طبيعة تكوين المنطقة كانت تمكن تتبع آثار العدو ولحاقه على الطرق التي يسلكها دون صعوبة(١).

وكان شاور " قد أعطي الصليبيين الأموال، وأقطعهم الإقطاعات، وأنزلهم دور القاهرة، وبنى لهم أسواقا تخصهم" ر (٢)، وهكذا لم تطق هذه الحامية الأجنبية البقاء في المعسكر، فأذن لها الكامل شجاع في دخول البلد، فاندفع فرسان الصليبيين ومقاتلوهم يجوسون خلاله ، مما روع الأهلين وزادهم نفورا من شاور وابنه الخسيس الكامل(٣).

وهكذا أصبح شيركوه في مركز لا يحسد عليه ، لذا تخلى عن مباغتة القاهرة لأن الصليبيين وحلفائهم الفاطميين يدافعون عنها باستماتة. فمضى بقوته صوب الجنوب دون توقف حتى بلغ دلجة (٤) وهي قرية بصعيد مصر غربي النيل جنوب الأشمونين في الجبل بعيدة عن الشاطئ. فأمر أسد الدين بنهبها فنهبت. ونزل الناس لتعشية الدواب فلم تمتنع عليقها حتى أمر أسد الدين بالرحيل وأوقد المشاعل ليلا وسار الجميع (٥).

وكانت الأخبار عن انسحابه تأتي إلى الملك أموري والوزير شاور دون انقطاع، وكان يقلقها إليهما كثافتهما. وقد استمرت المطاردة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع ــ أي في ١٨ مارس سنة ١١٦٧ م(٦)/ ٢٥ جمادي الثانية سنة ٥٦٢هـ. وصلت الأخبار إلى أموري أن شيركوه أصبح قريبا منهم.

حينئذ عقد أموري مجلسا حربيا اقتضت الضرورة أن يكون قصيرا، حيث تقرر بموافقة

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 921; William of Tyre, t.II, PP. 328-329.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٥٨، ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩٠٨، وكذلك: Grousset, t.II, P. 489; Schlumberger , P. 133.

(٢) أبو المحاسن : جـ٥ ، ص ٣٤٨.

(٣) Schlumberger, P. 133.

(٤) " دلجة " بالفتح ثم السكون وجيم : قرية بصعيد مصر غربي النيل في الجبل بعيدة عن الشاطئ . أنظر : البغدادي : جـ٢ ، ص ٥٣١، ياقوت : جـ٤، ص ٦٧. وقد أورد أبو المكارم المؤرخ القبطي المعاصر أن بدلجة دير وبيعة وان أهل هذه الناحية كانوا اثنا عشر ألف نصراني. أنظر : تاريخ " أبو المكارم" عن الكنائس والأديرة في القرن الثاني عشر الميلادي بالوجه القبلي ــ القاهرة، ٢٠٠٠ ، نشر الأنبا صموئيل، جـ٢، ص ١٢٢.

(٥) أبو شامة : جـ١ ، ق ٢ ،ص ٤٢٦.

(٦) في وليم الصوري : الحروب الصليبية ، جـ٤، ص ٨٩ ، حاشية رقم ٥٧ " في ١٨ أبريل سنة ١١٦٧م وصحة ذلك ما أثبتناه. أنظر ابن الأثير : أتابكة الموصل ، ص ١٣٢ و Willermus Tyrensis, t.I, P. 921; William of Tyre , t.II, P. 331.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

إجماعية خوض المعركة. ولاقى قرار وجوب حل المسألة بالسيف ترحيبا بالتصفيق[١].

وقبل الغوص فى تفاصيل معركة البابين زودنا وليم الصوري الذى استقى الأحداث التى سجلها على لسان بعض المشاركين فيها[٢] بتعداد الجيشين المتصارعين إذ يذكر أن الصليبيين لم يكن لديهم من الفرسان سوى ثلاثمائة وأربعة وسبعين فارسا إضافة إلى أربعة أو خمسة آلاف من الرجالة، يساندهم جيش الوزير الفاطمي شاور، الذى تألف معظمه من الرجالة ــ وكانوا من وجهة نظره ــ عبئا ثقيلا على الصليبيين ، ولا ترجى مساعدتهم. فضلا عن عدد

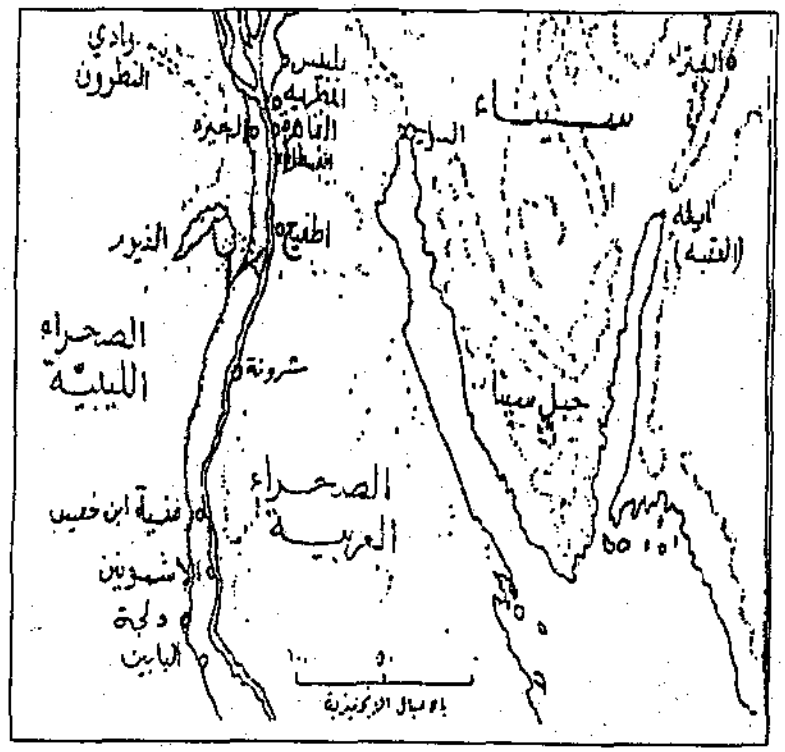

انسحاب شيركوه جنوبا إلى البابين

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 921; William of Tyre, t.II, P. 331.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي : جـ٤ ، ص ٦٠-٦١ ، ترجمة زكار ، جـ٢ ، ص ٩١٠-٩١١ وكذلك : Grousset, t.II, P. 489 Schlumberger , PP. 135-137; Runciman, t.II. P. 374.

(٢) William of Tyre, t.II, P. 331; Willermus Tyrensis, t.I. P. 924.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، ص٦٢ ، ترجمة زكار، ص ٩١١.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

كبير من التركوبولية [١] Turcopoles وهم من الخيالة من أصحاب الأسلحة الخفيفة الذى يقول وليم الصوري انه لا يعرف عددهم، إلا أن الكثيرين أبلغوه أن هذه القوات كانت عديمة الفائدة ولا جدوى منهم خلال خوض الاشتباك الحربي الكبير فى ذلك اليوم[٢].

وبتفحص تعداد الجيش الصليبي والتعقيب على دور كل طائفة من طوائفه طبقا للرواية سالفة الذكر، نلاحظ انحياز وليم الصوري انحيازا تاما وعن عمد لصالح طبقة الفرسان من كبار قادة الجيش الصليبي بقيادة سيده وولى نعمته الملك الصليبي آموري، فقلل من عددهم حتى يبرر سبب هزيمتهم. ولم يكتف بذلك، بل أظهرهم ــ دون سواهم من الطوائف الأخرى ــ بأنهم قاتلوا بجسارة وضراوة فى تلك المعركة، حين ذكر أن جيش شاور من الرجالة كان عائقا وعبئا على فرسان الجيش الصليبي، أما التركوبولية فكانوا ــ كجيش شاور ــ عديمي الفائدة.

ولا ينبغي أن يغرب عن ذاكرتنا أن نسجل هنا أن آموري كان قد ترك حامية صليبية فى القاهرة لحمايتها من السقوط فى أيدي الأعداء، وذلك قبل انطلاقه جنوبا لمطاردة جيش أسد الدين شيركوه، وبالتالي قلل ذلك من تعداد الجيش الصليبي ، ولكن ليس لدرجة أن يتحول عدده إلى ثلاثمائة وأربعة وسبعين فارسا فقط. علما بأن المصادر الإسلامية قد أجمعت على أن جيش آموري وجيش حليفه شاور فاق فى عدده جيش شيركوه وذلك مع استبعاد ما خلفاه من حامية فى القاهرة.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه بصدد تعداد الجيشين المتصارعين ، فإن جيش شيركوه ــ قبيل معركة البابين ــ أدرك قلة قواته مقارنة بقوات التحالف الصليبي الفاطمي، لذا حاول بعض المقربين منه إقناعه بالرجوع إلى بلاد الشام، بدلا من خوض غمار معركة غير متكافئة. إلا أن شرف الدين برغش صاحب شقيف [٣] أحد المماليك النورية ــ كما سنفصل فيما بعد ــ حثهم على القتال ورفع معنوياتهم، ونجح بالفعل فى توحيد كلمة الجميع على ضرورة القتال،

---

(١) " التركوبولية " Turcopoles كانوا خيالة مرتزقة يخدمون فى صفوف الجيش الصليبي. وتشكلوا من السكان المحليين وبعض الإغريق والأرمن وسواهم. أنظر : وليم الصوري : الحروب الصليبية ترجمة سهيل زكار ، ص ٩١١ ، حاشية رقم ١.

(٢) Willermus Tyrensis, t.I, P. 924; William of Tyre, t.II, P.331.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤ ، ص ٦٢ ، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٩١١.

وكذلك: Grousset , t.II , PP. 489-490; Schlumberger, PP. 137-138; Prawer,, J. Histoire Du Royaume Latin de Jerusalem , t.I, P. 435.

(٣) قلعة شقيف Beaufort قلعة حصينة جدا فى كهف من الجبل ، قرب بانياس، من أرض دمشق، بينها وبين الساحل (أنظر البغدادي : جـ٢، ص ٨٠٧) وكانت مشرفة على وادي القاسمية وحصن صفد Chateau neuf . أنظر : رفيق التميمي: الحروب الصليبية ، القدس ١٩٤٥ – ص ٧١.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

فأنزلوا بالأعداء هزيمة منكرة . كذلك ذكر ابن الأثير ونقل عن أبو شامة أن شيركوه حين رتب صفوفه جيشه للمواجهة الحاسمة جعل الأثقال فى القلب " ليتكثر بها " أى ليظهر كثرة عدد جيش صلاح الدين. وفى موضع آخر، وبعد إحراز شيركوه النصر على التحالف الصليبي علق ابن الأثير باندهاش بالغ على تمكن شيركوه من ذلك رغم قلة عدد جيشه قائلا : " وكان هذا من أعجب ما يؤرخ أن ألفى فارس تهزم عساكر مصر وفرنج الساحل " [١].

إضافة إلى ما تقدم ، فإن شيركوه ــ رغم انتصاره على التحالف الصليبي الفاطمي فى معركة البابين ــ إلا أنه لم يقم بمطاردة الجيش المهزوم، إذ تخلى عن التوجه إلى القاهرة خلف قوات الملك أموري وشاور. وقد لامه على ذلك " أبو المحاسن بن تغرى بردي " إذ أورد فى مصدره " النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة " أنه " لو سار أسد الدين خلفهم فى الحال ملك القاهرة [٢]" . هذا بينما أرجع " أبو شامة " فى مصدره " كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين " سبب ذلك إلى قلة جند شيركوه ولتحقيق رغبة أهل الإسكندرية الذين كاتبوه بعد أن أنفوا من شاور لاستعانته بالصليبيين، إذ بعثوا إليه برسالة حملها الجغرافي الشريف الإدريسي يخبرونه فيها " أن الملاح واصل " ، فتشجع شيركوه ليجعل منها قاعدة لعملياته العسكرية ، وان يحول دون مجئ أى مدد لأموري من البحر المتوسط [٣].

هذا عن تعداد الجيش الصليبي فى ضوء رواية وليم الصوري ــ رئيس أساقفة صور وكبير مستشاري أموري ــ الذى حرص عن عمد تقليل عدد الجيش الصليبي، وما ورد على نقيضه فى المصادر الإسلامية التى اكتفت بذكر ضخامة عدد الجيش الصليبي مقارنة بجيش شيركوه الأقل عددا بكثير، دون ذكر أرقام كما فعل وليم الصوري.

وفيما يتعلق بتعداد جيش شيركوه ، فكان عماده الخيالة المدرعة الوافرة. وقد أجمعت المصادر الإسلامية على انه قدم إلى مصر فى الفين من الفرسان ، استشهد منهم عدد كبير أثناء المناوشات التى دارت بين الفريقين ، حتى أن كبار قادته نصحوه بالرجوع إلى بلاد الشام [٤]ــ كما سبق أن ذكرنا ــ وقد انفرد وليم الصوري دون غير من المصادر بتزويدنا

---

(١) ابن الأثير:الكامل ،جـ٢٩،ص ٩٥ ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٣، أبو شامة : جـ١،ق٢ ، ص ٣٦٥.

(٢) أبو المحاسن : جـ٥ ، ص ٣٤٩، ابن الجوزي ، ص ٢٦٩.

(٣) أبو شامة : جـ٢، ق ٢، ص ٥٢٦.

(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩، ص ٩٥، التاريخ الباهر، ص ١٣٣، ابن واصل :مفرج الكروب، جـ١ ص ١٤٨. أنظر أيضا :Schlumberger, P..138

هذا بينما أورد ابن العبري " أن شيركوه لم يكن معه سوي ألفى جندي لا غير ، مع أن الفرنج والمصريين كانوا أكثر من عشرة آلاف " . أنظر : تاريخ الزمان، ص ١٧٩ ، أنظر أيضا : The Chronography, V. 1, P.290 فى حين ذكر مصنف " حياة القديس برنار " Vita Bernhardi أن جيش

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بأعداد تفوح منها المبالغة الواضحة. إذ ذكر أن عدد الفرسان المدرعين بزرديات الحديد لم يكن متكافئاً بين المتصارعين. فقد كان عند شيركوه اثنا عشر ألف من الشوام[١]، منهم تسعة آلاف يلبسون الدروع على صدورهم والمغافر على رؤوسهم وكانت خيولهم مدرعة هي أيضاً. أما الثلاثة آلاف الآخرون، فقد اقتصر سلاحهم على الأقواس والسهام. كما كان تحت امرته غير هؤلاء عشرة آلاف أو أحد عشر ألف من البدو[٢] ، يحاربون كعادتهم بالرماح ولا شئ سواها[٣]. وقد أوضحنا في الصفحات السابقة هدفه من هذا التضخيم.

وفيما يتعلق بلحظات الاستعداد الأخيرة للمواجهة بين الطرفين يذكر وليم الصوري أنه حالما علم الجيشان باقترابهما من بعضهما بعضا حتى رتبا صفوفهما حسبما تتطلبه الظروف ، ونظموا كتائبهما ، وعرضوا أسلحتهما. فأما كبارهم من أهل الرأى السديد، فلم يبخلوا عن الجند بالمشورة، وبذلوا لهم النصيحة ، وأثاروا حميتهم وشجاعتهم، ووعدوهم بالنصر والمجد الأبدى[٤].

أما عن أرض المعركة ، فيصف مكان ساحة القتال بأنها اندلعت في المنطقة الفاصلة بين الصحراء والأرض الخصبة، وهي أرض غير ممهدة تكثر بها الكثبان الرملية، وتتخللها الحفر مما لا يتسنى معها رؤية القادمين أو الخارجين إن كانوا على بعد منها . ثم حدد وليم الصوري اسم هذا الموضع باسم " البابين[٥] " ويذكر أن سبب تلك التسمية راجع لشدة ضيق النهر الواقع في تلك المنطقة بين المرتفعات الموجودة على الجانبين . ويبعد هذا المكان عشرة أميال عن المنيا [٦].

=شيركوه تكون من ثلاثة آلاف من البدو وأربعة عشر ألف من الأتراك ويقصد شوام ، أنظر : Schlumberger, P. 138; n.1. . علماً بأننا لم نتمكن من الإطلاع على المصدر السابق.

(١) في الحروب الصليبية ، ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٦٢ ، "تركمان" ، وفي ترجمة سهيل زكار ، جـ٢، ص ٩١١. أتراك ، لاعتمادهما على الترجمة الإنجليزية أنظر : William of Tyre, t.I, P. 331. صحة ذلك شوام : Willermus Tyrensis. t.I. P. 924; Schlumberger. P. 137

(٢) في الحروب الصليبية، ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٦٢ " عرب " وفي ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩١١ " عرب" أيضاً لاعتمادها على الترجمة الانجليزية. أنظر: Guillamue De Tyr, t.II, P.331 وصحة ذلك "بدو " انظر : Willermus Tyrensis , t.I. P. 924; Schlumberger , P. 137.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, P. 924; William of Tyre, t.II, P. 331 أنظر أيضاً: وليم الصوري:الحروب الصليبية ــ ترجمة حبشي جـ٤،ص٦٢،ترجمة زكار،جـ٢،ص٩١١،وكذلكSchlumberger، P.137.

(٤) Willerums Tyrensis, t.I. P. 924 , William Of Tyre, t.II. p.331

أنظر أيضاً : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٦٢ ، ترجمة زكار، جـ٢ ، ص٩١١.

(٥) تقع بلدة " البابين " عند مسافة عشرة أميال جنوبي المنيا، وثلاثمائة كيلو متر جنوبي القاهرة، انظر ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. ص ٣٧ ، حاشية رقم ٢، المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق محمد مصطفى زيادة، الطبعة الثانية ، جـ١، ق ١ ، ص ٦٣ ، حاشية رقم ٣. وكذلك : Lane- Poole , Saladin and The fall of the kingdom of Jerusalem, New York 1898; PP. 88-89; Oldenbourg, P. 383.

(٦) " المنيا "وليس " المنية "كما في الترجمة العربية لسهيل زكار ، أنظر وليم الصوري : جـ٢، ص ٩١١.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ومن ثم عرفت هذه الوقعة أحيانا بوقعة المنيا(١).

ولم يخف وليم الصوري إعجابه بالقائد أسد الدين شيركوه حتى انه وصفه ببعد النظر والحكمة، لاحتلاله المرتفعات الموجودة على اليمين واليسار، وبعدها نظم كتائبه استعدادا لقتال، وكان نتيجة تلك الاستراتيجية الحربية أن أدت تضاريس أرض المعركة وارتفاعها وطبيعة الأرض الرملية إلى أن صادفت الكتائب الصليبية مشقة كبرى فى الهجوم على مواقع جيش شيركوه(٢).

هذا عن موضع المعسكرين المتصارعين ، أما عن ترتيبات الجيشين فينكر "أبو المحاسن"أن " شاور " رتب عساكره فجعل الفرنج على الميمنة مع ابن نيرزان، وعسكر مصر فى الميسرة ، وأقام الملك مري (أى أموري) الفرنجي فى القلب فى عسكره من الفرنج" (٣).

والملاحظ تعدد واختلاف الروايات المتعلقة بترتيب أسد الدين شيركوه لجنده قبيل اندلاع معركة البابين ، فقد أورد أبو المحاسن أن أسد الدين كان فى قلب الجيش ، فهجم عليه أموري، فتتبعه ، وكانت أثقال أسد الدين فى الخلف ، فانشغل الفرنج فى نهبها. هذا بينما كان صلاح الدين فى الميمنة، فحمل على عكسر شاور " فكسره وفرق جمعه " . ثم عاد أسد الدين إلى ابن أخيه صلاح الدين، وحملا على الفرنج فانهزموا ، فقتلا ألوفا وأسرا مائة وسبعين فارسا(٤).

أما الروايات الواردة فى كثير من المصادر الإسلامية الأخرى، فتذكر أن شيركوه عرف ترتيب الفرنجة بحدسه العسكري، وأنهم سيظنون أنه موجود فى القلب، وأن من عادة الصليبيين القتالية مهاجمة القلب، لذا وضع صلاح الدين على رأسه، وطلب من مقاتليه أن لا يصدقوا فى القتال ، والتظاهر بالانهزام أمام الجيش الصليبي ، حتى إذا عادوا عنهم، رجعوا فى أعقابهم. كذلك جعل شيركوه الأثقال فى القلب " يتكثر بها " ، أى ليظهر كثرة عدد جيش

---

(١) =Willermus Tyrensis, t.I, P. 925 . William Tyre. t.II, P. 332

= أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٦٣، ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩١١

وكذلك Grousset, Croisades, t.II, P. 489; Levant. P. 234, Schumberger, P. 136; Oldenbourg , P. 383; Treece, H. The Crusades. New York; 1964; P. 143; Michaud, t.II, P. 47

ويذكر فرديناند لوفى كتابه " فن القتال والجيوش فى العصور الوسطى " أن المعركة وقعت على مسافة عشرة فراسخ شمالي البابين. أنظر: Lot, t.I. P. 144 .

(٢) Willermus Tyrensis. t.I, P. 927; Wiliam of Tyre, t.II, P. 332.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي، جـ٤، ص ٦٣، ترجمة زكار، جـ٢، ص ٩١١، وكذلك : Grousset, t.II, PP. 490-491; Schlumberger. PP. 140-141.

(٣) أبو المحاسن : جـ٥، ص ٣٤٨، والملاحظ أن "صاحب النجوم الزاهرة " انفرد دون غيره من المصادر الإسلامية والصليبية بذكر شخصية " ابن نيرزان " والتى لم نتمكن من معرفتها .

(٤) أبو المحاسن : جـ٥ ، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

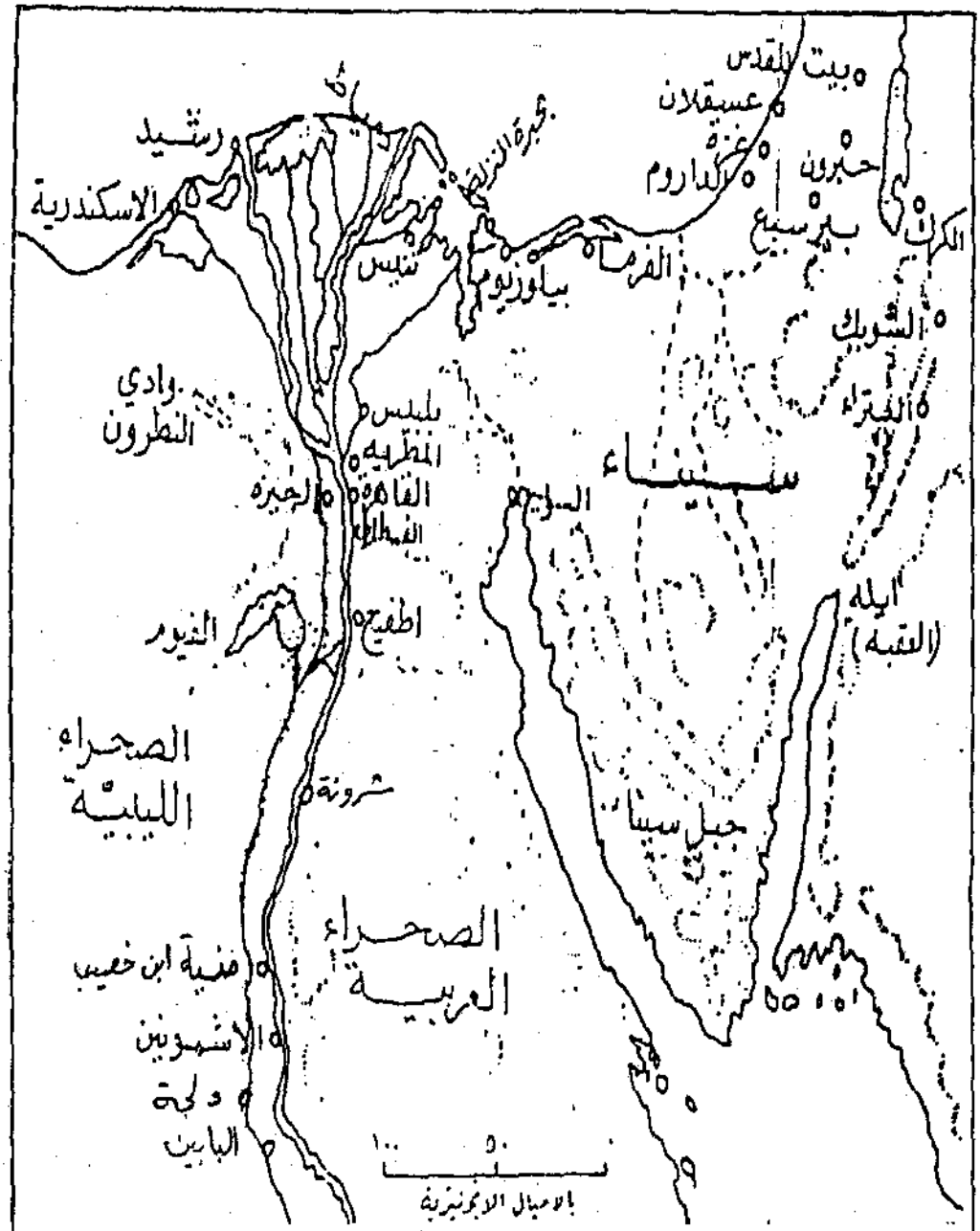

الطليبيون والفاطميون والزنكيون

في معركة البابين

(١٨ مارس سنة ١١٦٧ م / ٢٥ جمادي الأولى سنة ٥٦٣ هـ)

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

صلاح الدين ، " ولأنه لم يمكنه أن يتركها بمكان آخر فينهبها أهل البلاد [١] " . أما هو فقد كان في الميمنة ، " واختار شجعان أمرائه جميعا يثق إليهم ويعرف صبرهم وشجاعتهم " [٢]. وقد ذكر أبو شامة نقلا عن ابن أبي طي " أن أسد الدين قسم جيشه قسمين ؛ قسم بقي معه، وقسم جعله مع صلاح الدين كمين ليأتي خلف الفرنج " [٣].

على أية حال ، بدأت المعركة ، وتتفق المصادر الإسلامية على تفوق التحالف الصليبي الفاطمي في بداية المعركة إذ يذكر وليم الصوري أن الكتيبة التي ترأسها الملك أموري تقدمت في شجاعة وعزم، فأحدق الجيش الصليبي بكتائب شيركوه ونجح في تشتيتها، وأعملوا السيف في الجند. كما أن شيركوه نفسه لاذ بالفرار، فانطلق الصليبيون في أثره لمطاردته عن قريب[٤].

والملاحظ أن بعض تلك المصادر يجعل التراجع سببه قسوة الخصم، كما سبق أن أوضحنا في الرواية السابقة، وبعضها الآخر يرجعه إلى حيلة ، فأبو شامة يذكر نقلا عن ابن أبي طي ، انه عندما حدث اللقاء قتل من جماعة أسد الدين قسم كبير ، لأن قسما من جيشه كان مع صلاح الدين في الكمين ، ثم تماسك جند أسد الدين إذ لا ملجأ لهم إلا الصبر وتحالفوا مع الموت، وحملوا على الأعداء.

أما صلاح الدين فقد تظاهر بالتراجع ، فحسب أموري أنها هزيمة دارت على خصمه، فاندفع بمن معه في أثره، وانشغلوا بنهب الأثقال. وهنا انقض شيركوه بمن معه على من بقي في القلب من الفرنج، ووضع فيهم القتل، وأتى السيف على معظمهم، وانهزم الباقون، واستمرت الحرب إلى الليل. فلما عاد الفرنج من أثر المهزومين لم يروا أحدا ممن كان في القلب، فانهزمت عساكر المصريين والفرنج. ولم ينج أموري إلا بشق النفس، وكاد أن يؤسر[٥]، فأسرع وفي أعقابه شاور متجهين نحو الشمال، ولم يطمئنا إلا عندما وصلا إلى

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩، ص ٩٥، التاريخ الباهر، ص ١٣٣، أبو المحاسن : جـ٥، ص ٣٤٩، ابو شامة ، ص ٣٦٥، ابن واصل : جـ١ ، ص ١٥٠، ابن العديم : جـ٢، ص ٣٢٣. أنظر أيضا : Kamil Al- Tawarikh, in R.H.C.,H. Orr. T.I. PP. 547-551; Le Livre Des Deux Jardins, PP. 130-131. C.F. Grousset, t.II, P. 491; Schlumberger , PP. 142-143; Lot, t.I. P.144.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٩٥ ، التاريخ الباهر، ص ١٣٣ ، أبو شامة: ص ٣٦٥ . وكذلك Schlumberger , PP. 141-142; Grousset, t.II., p. 491.

(٣) أبو شامة : جـ١، ق ٢، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٤) Willermus Tyrensis, t.I, P. 927; William of Tyre, t.II, P. 332.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ ٤ ، ص ٦٣ ، ترجمة زكار ، جـ٢ ، ص ٩١١ -٩١٢
أبو شامة : جـ١، ق ٢ ، ص ٥٢٧ ، وكذلك : Grousset, t.II, P. 491; Schlumberger, P. 142.
(٥) أبو شامة : ص ٥٢٦ - ٥٢٧ . أنظر أيضا : Rohricht, P. 327; n.1 Schmuberger, P. 145.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

الحامية التى خلفاها عند القاهرة . ووقع مئات من فرسان الصليبيين فى الأسر، وكـان فيـهم هيج صاحب قيسارية ومعه عدد كبير من رجاله، بخلاف من سقط قتيلا[١].

والجدير بالملاحظة تعارض المصادر فيما يتعلق بالتحديد الدقيق لتاريخ وقوع معركـة البابين. فإذا تفحصنا المصادر الإسلامية التى دققت تأريخها فنجد " ابن الأثير " فى مصـدره "التاريخ الباهر " يذكر أن المعركة حدثت فى الخامس والعشرين من جمـادي الأولـى سـنة ٥٦٢هـ [٢]. إلا انه يتراجع عن ذلك فى مصدره الثاني " الكامل فى التاريخ " ليدرجها تحـت أحداث الخامس والعشرين من جمادي الآخرة [٣]. وتحت هذا اليوم أيضا تحدث ابن واصـل باختصار شديد عن معركة البابين [٤]. وكان من الطبيعي أن يدرج أبو شامة الذى ينقل حرفيـا عن " التاريخ الباهر " تلك المعركة فى الخامس والعشرين من جمادي الأولى [٥].

هذا عن المصادر الإسلامية التى حددت تاريخ معركة البابين. أما وليم الصوري الـذى تحدث بإفاضة عن تلك المعركة وكان على صلة وثيقـة بكبار قادة الجيـش الصليبـي بـل وبالملك الصليبي آموري فقد ذكر انه بعد مطاردة لجيش شيركوه استمرت ثلاثة أيام، اندلعـت المعركة فى اليوم الرابع وكان يوم السبت الذى تنشد فيه الكنائس ترنيمة " إفرحي يا أورشليم"، وبناء على ذلك أجمع الكثير من المؤرخين الغربيين على تحديدها بيـوم ١٨ مـارس سـنة ١١٦٧م [٦]/ ٢٥ جمادي الأولى سنة ٥٦٢ هـ .

على أية حال ، أعقب ذلك النصر الذى أحرزه شيركوه علـى التحالـف الصليبـي الفاطمي أن قام بضم صفوفه بعضها إلى بعض ، ثم أحدق بعدوه من كل جانب. وقام بتطويق القوات الصليبية المكلفة بحماية الأمتعة والمعدات، فهزمها وشتت شـملها، وقتـل العديـد ،

---

(١) Williermus Tyrensis , t.I, P. 926; William of Tyre, t.II, P. 332.
أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٦٣-٦٤ ، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٩١١-٩١٢ وكذلك : أبو شامة : جـ١، ق ٢، ص ٣٦٥ ، موسى بن محمد : النجوم الزاهرة فى حلـى القـاهرة ، تحقيق حسين نصار ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٩٤-٩٥ ، ابن واصل : جـ١، ص١٥٠، ابـن الأثـير : الكامل ، جـ٩ ،ص ٩٥ ، التاريخ الباهر ، ص ١٣٣ ، ابن العديم : جـ٢، ص ٣٢٣، أبو المحاسـن : جـ٥ ، ص ٣٤٩ ، جـ١ . Rohricht, PP. 20, 24 ; Schlumberger, PP. 142-143; Grousset, t.II, PP. 491-492.

(٢) التاريخ الباهر ، ص ١٣٢.

(٣) الكامل فى التاريخ، جـ ٩ص ٩٥.

(٤) مفرج الكروب ، جـ١، ص ١٥٠.

(٥) الروضتين : جـ١، ق ٢ ، ص ٣٦٤.

(٦) Guillaume of Tyre t.II, P. 331, n. 1 CF. Grousset, t.II, P. 489; n.1; Levant , P. 234; Schlumberger, t.II, P. 136; Rohrict; P. 325; n. 3; Runciman, t.II, P. 374.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

واستولى على غنائم طائلة من أمتعة ومعدات وخيول . أما القوات الصليبية المشتتة هنا وهناك في الأودية الصغيرة فقد حاربت حربا لا تدري فيه مصيرها. على أن معركتهم هذه لم تكن بالمعركة الفاصلة، فقد كان النصر تارة في جانب جيش أسد الدين وتارة أخرى في جانب الصليبيين وأصيب آنذاك راؤول أسقف بيت لحم Raoul De Bethleem ومستشار الملك أموري ، وقد تولى هذه الوظيفة من بعده وليم الصوري. وكان جرح راؤول شديدا وفقد كل متاعه[١].

ويذكر وليم الصورة أن نتيجة معركة البابين ظلت غير معروفة وقتا طويلا، فكان الصليبيون يقاتلون هنا وهناك ، فتلحقهم الهزيمة في موضع، ويواتيهم النصر في موضع آخر. وهكذا ــ حسب قوله ــ استحال على أحد من الجانبين أن يزعم أن المعركة كانت فاصلة. وانتهى أمر المعركة بأن انسحب الملك أموري وقلة ممن كانوا معه إلى أحد التلال فرابطوا به، ثم رفع علمه ليتجمع تحته عسكره المشتتون حتى يتمكن الجميع من الانسحاب. أما جيش شيركوه ، فكان قد تمكن من الاستيلاء على أمتعة الجيش الصليبي وفك برهط منهم وأسر غيرهم، وأقام على التلين المواجهين للجيش الصليبي ، وكان في حالة فوضى واضطراب حسب زعم وليم الصوري. والمأزق الذي واجهه الجيش الصليبي أنه ليس أمامه أي طريق يسلكه إن هو أراد الارتداد إلا أن يمر بين هذين التلين اللذين يحتلهما ويسيطر عليهما جيش شيركوه، فما كان عليهم أن رتبوا صفوفهم وشرعوا في التقدم في بطء بين جيش عدوهم شيركوه الذي كانوا يرونه على يمينهم ويسارهم، ومع ذلك، فقد ساروا في ثبات حتى أن جيش شيركوه لم يحاول التصدي لهم بالأذى. ونجحوا في شق طريقهم إلى موضع من النهر وجدوا به مخاضة ، فعبروا منها سالمين ، واستمروا في الارتداد ليلا في نفس الطريق الذي سبق لهم أن تقدموا منه[٢]. وأخيرا وصل الجيش الصليبي إلى منية ابن

---

(١) Willermus Tyrensis, t.I, P. 927; William of Tyre, t.II, PP. 332- 333.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤، ص ٦٣-٦٤ ، ترجمة زكار ، جـ١ ، ص ٩١٢

وكذلك : Grousset, t.II, P. 492, Schlumberger , P. 144; Ehrenkreutz, A.S., Saladin, N.Y. Albany , 1972; PP. 41-44; Michaud, t.II, P. 47. Oldenbourg, P. 383; Lot, F. L'Art Militaire Et Les Armees Au Moyen Age, Paris, 1946, t.I, PP. 144-145

وقد أورد فردينان لو Ferdinand Lot في كتابه " فن الحرب والجيوش في العصور الوسطى " أن المعركة دارت على مسافة عشرة فراسخ (الفرسخ ٤٤٤٤م) شمال البابين . أنظر : Lot, t.I, P. 144

ومما يذكر أن وليم الصوري ظل مستشارا لمملكة بيت المقدس منذ سنة ١١٧٤ حتى وفاته سنة ١١٨٤م. أنظر : السيد الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية ــ القاهرة ١٩٦٢- ص ١٠١.

(٢) Willermus Tyrensis, t.I, P. 927 , William of Tyre, t.II, P. 333.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي : جـ٤، ص ٦٤-٦٥ ، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٩١٢-٩١٣. وكذلك : Grousset, t.II, P. 492; Schlumberger, PP. 145-146.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

خصيب[١] حيث صادفهم "جيرار دو بوجي " Gerard De Pougy ومعه خمسون فارسا ومائة من التركوبولية يعاونهم أحد أبناء شاور [٢] الذى كان يقف على الشاطئ الآخر من النهر لصد جيش شيركوه إن حاول العبور [٣].

وظل الملك آموري فى " قصر منية ابن خصيب " [٤] Monyet Ibn Khacib فى انتظار وصول الجيش الصليبي مدة طالت حتى بلغت ثلاثة أيام، فلما كان اليوم الرابع، أخذ المشاة

---

(١) فى ترجمة حسن حبشي لوليم الصوري : " جيرارد دي بوغي " (أنظر : ص ٩١٣) وصحتها : "جيرار دو بوجي " كما أثبتنا أنظر : Gerard De Pougy Grousset, t.II, P. 493; Schlumberger, P. 147.

(٢) كان لشاور ثلاثة بنين : طي ــ وهو الأكبر ، والكامل شجاع ، وهو الأوسط، وسليمان (ويلقب بالطراز أو المعظم) وهو الأصغر. قتل طي وسليمان ابنى شاور، وبقي إذن على قيد الحياة الابن الأوسط الكامل شجاع. وظل الكامل معتقلا فى دار ملهم أخى ضرغام إلى أن عاد أبوه شاور وانتصر بمساعدة جيوش نور الدين على ضرغام وقتله. وأطلق سراح ابنه الكامل، كما أطلق سراح القاضي الفاضل، فقد كان معتقلا مع الكامل في نفس الدار. وكان قد صدر سجل بتعيين الكامل نائبا للوزارة في أواخر ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ. وقتل الكامل يوم الاثنين رابع جمادي الأولى سنة ٥٦٤هـ. ويقال إن شيركوه تأسف عندما علم بقتله " لما كان بلغه عند منعه أباه عن عزمه على الفتك به ". للتفاصيل أنظر : جمال الدين الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ، المجلد الأول ١٩٦٥ ، ص ١٥٧- ١٥٩، ١٧٠ مما تقدم يكون المقصود " الكامل " بسبب وفاة طي وسليمان.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, P. 927 ; William de Tyre, t.II, P.333.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي ، جـ٤، ص ٦٥، ترجمة سهيل زكار، جـ٢، ص ٩١٣، أنظر أيضا : Grousset, t.II, P. 498; Schlumberger, P. 147.

(٤) منية ابن خصيب Monyet ibn Khacib وليس " المنيا " كما فى وليم الصوري : ترجمة حسن حبشي، جـ٤، ص ٦٥-٦٦ ، و " المنية " فى ترجمة سهيل زكار، ص ٩١٣. وانفرد جستاف شلمبرجيه دون غيره من المصادر والمراجع بتصحيح هذا الخطأ . (أنظر : Les Campagnes Du Roi Amaury, P.146, n.1) وقد وردت فى ياقوت على شكل منية أبى الخصيب : بالضم ثم السكون ثم ياء مفتوحة وذكر أنها مدينة كبيرة حسنة ، كثيرة الأهل والسكن على شاطئ النيل بالصعيد الأدنى. أنظر : ياقوت : معجم البلدان ، جـ٨، ص ١٨٨، البغدادي : مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق على محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٥٥ مجـ ٣، ص ١٣٢٧.وينكر المقريزي (الخطط مجـ١، ص ٢٠٥) وعلى مبارك (الخطط التوفيقية ، جـ١٦ص ٥١-٥٢) أنها تقع على الشاطئ الغربي للنيل شمال أسيوط هذا بينما يذكر جستاف شلمبرجيه أنها كانت آنذاك إحدى مراكز إقليم الأشمونين . أنظر : Anaury, PP. 146-147, n.1 ; Rohricht, P. 327 . وقد وردت فى مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية على شكل " لامونيا" Lamonia وكذا في الترجمة الإنجليزية أنظر : Willermus Tyrensis. t.I, P. 928; William of Tyre, t.II, PP 333-334; CF Grousset , t.II, P. 493, n. 2

والجدير بالذكر أن مجرى نهر النيل قد تغير تغيرا محسوسا منذ القرن الثاني عشر الميلادي. أنظر: Becker: Encyclopedie de l'Islam , P. 928.

وعن موقعها آنذاك أنظر الخريطة ، علما بأنه ينبغي على الباحث استخدام مصطلحات وأسماء العصر الذى يكتب عنه. =

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

بقيادة الفارس جوسلين صاحب سميساط[١] Josselin De Samosate في التجمع شيئا فشيئا وانضموا إلى قوات الملك الصليبي ، ثم تابعوا الزحف بلا توقف حتى بلغوا الجسر الموجود أمام بابليون[٢] فعسكروا عنده . حيث أحصى الملك فرسانه فتبين له هلاك مائة منهم، وقيل أن شيركوه فقد ألفا وخمسمائة [٣].

هكذا لم تحسم معركة البابين الصراع بين الطرفين، وقام شيركوه بجمع قواته متجها إلى الإسكندرية وذلك في أواخر مارس سنة ١١٦٧م/ أواخر جمادي الأولى ٥٦٢هـ. أما أموري فقد قام هو الآخر بلم شمل قواته التي كانت قد تفرقت في أنحاء المنطقة ومعهم قوات شاور، وتقدموا ناحية القاهرة لينحازوا إلى عسكر الحامية بها [٤].

على أية حال ، كانت معركة البابين فخرا كبيرا للقائد الناشئ ، صلاح الدين ودرسا ألم فيه بأسس التعبئة الحاشة لنظام المعركة من كر وفر ومناورة ، وانطبعت آثار العملية في ذهنه حتى إذا ما جاء دور الجهاد الفعلي، وجد نفسه مزودا بتراث الماضي وخبراته. وكشفت معركة البابين كذلك عن طبيعة نظام الإقطاع الحربي الوراثي وأثره في نفسية المحاربين، كما كشفت عن قاعدة الوراثة ومداها في الدولة النورية، إذ قال شرف الدين برغش صاحب شقيف وأحد المماليك النورية ، والذي اشتهر بالشجاعة، نهض ينكر على الأمراء التخاذل والتراخي في قتال التحالف الصليبي الفاطمي ، وقال " من يخاف القتال والأسر، فلا يخدم الملوك، بل يكون في بيته مع امرأته، والله لئن عدنا إلى نور الدين من غير غلبة ولا بلاء نعذر فيه

---

*وفي القلقشندي تعرف بـ " منية ابن الخصيب " و " منية أبي خصيب " ، نسبة إلى " الخصيب بن عبد الحميد" صاحب خراج مصر في عهد الخليفة هارون الرشيد العباسي. وهي المعروفة اليوم بـ " المنيا" عاصمة الإقليم المعروف باسمها . أنظر : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،جـ٣، ص ٢٧١،حاشية رقم١.

(١) جوسلين صاحب سميساط Josselin De Samosate هو شقيق أنيس Agens مطلقة أموري وزوجة هيج دبابن . أنظر : Grousset, t.II, P. 493.

(٢) بابليون : اسم عام لديار مصر بلغة القدماء ، وقيل : هو اسم لموضع الفسطاط خاصة (انظر : البغدادي جـ١، ص ١٤٦) ويقال أن اسمها الأصلي " باب اليون " وان " اليون " حصن فتحه عمرو بن العاص. أنظر وليم الصوري : ترجمة حبشي ، ص ٨٥، حاشية رقم ٢٦.

(٣) Willermus Tyrensis, t.I, P. 928; William of Tyre, t.II, P. 334.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، جـ٤ ،ص ٦٦ ، ترجمة سهيل زكار ، ص ٩١٣ وكذلك: Grousset , t.II, P. 493; Schlumberger, PP. 147-148.

(٤) Willermus Tyrensis, t.I, PP. 928-929; Wiliam of Tyre, t.II, P. 334.

أنظر أيضا : وليم الصوري : ترجمة حبشي ، ص ٦٦ ، ترجمة زكار ، جـ٢، ص ٩١٣ ، وكذلك : Schlumberger, PP. 150-152; Runciman , t.II, PP. 374-375; Grousset, R. L'empire Du levant , Paris, 1946; P. 234; Histroire Des Croisades, t.II, P. 493; Lot, t.I , P. 145.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com

ليأخذن مالنا من إقطاع وجامكية[١]، وليعودن علينا بجميع ما أخذناه منذ خدمناه إلى يومنا هذا". ثم التفت إلى أصحابه وقال مرة أخرى مؤنبا " تأخذون أموال المسلمين ، وتفرون من عدوهم، وتسلمون مثل مصر إلى الكفار والحق بيده" . فوافقه الجميع على قوله ومن بينهم صلاح الدين نفسه[٢]. وربما كانت هاتان العبارتان من أسباب استماتة الجند النوري في القتال ، حتى كان لهم الفوز والغلبة على النحو السابق ذكره. وبذلك أثبت مسلمو بلاد الشام تفوقهم الواضح على الجيوش الصليبية في التكتيكات العسكرية على حد قول المؤرخ المحدث جوزيف ميشو [٣] Joseph Michaud.

هكذا كان السبب الرئيسي في انتصار جيش شيركوه في معركة البابين على التحالف الصليبي الفاطمي تظاهره بالفرار، ليوهم العدو بهزيمته واضطراب صفوفه. والحقيقة أن هذا التراجع المخادع كان أقرب إلى " شبه الهارب " ، وكان يتم تبعا للطريقة التركمانية في خداع العدو والتغرير به. فالأتراك كبدو ما كان لديهم خططهم الخاصة في الزحف، كما كانت لهم مبادئهم المتميزة في فن السوقية العسكرية. وتنطلق هذه المبادئ من الاعتماد على طبيعة الجندي وخفته ومرونته في الحركة، واستحالة خضوعه لأنظمة ضبط وربط محددة ــ وفقا للتكتيك المطلوب ــ فيها يعطي القائد أمرا عاما يحدد فيه لقواته نقطة وليلة التواجد وكذا توقيت الحركة، ويندفع الجند ــ في الوقت المناسب ــ زمرا وأفرادا في اتجاهات مختلفة، وهنا يظن العدو أنهم تفرقوا على غير عودة بعد أن لحقت بهم الهزيمة حسب اعتقاده وتخمينه ولكن لا يدري أن تفرقهم يفيد قائدهم بتحريره من قضايا التموين. ثم يدمر أراضي العدو، ويضلل قيادته، ويجبرها في كثير من الأحيان على تحضير خططه لسحق بضعة آلاف من الجند. لكن هذا العدو يدهش فيما بعد، عندما يجد قوات جند الترك قد تضاعفت إلى أضعاف مضاعفة فتنهار معنوياته وقواته ويتم عامل المفاجأة وهكذا يحقق النصر. وهذا ما حدث في معركة البابين .

---

(١) " الجامكية " جمعها جامكيات ، أي الرواتب العامة، أنظر المقريزي : السلوك ، جـ١، ق١، ص٥٢.

(٢)ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ،ص ٩٥، التاريخ الباهر، ص ١٣٢-١٣٣، ابن العبري : تاريخ الزمان، ص ١٧٨-١٧٩، أبو شامة : جـ١، ق ٢، ص ٣٦٤ -٣٦٥ ، أنظر أيضا :

Michaud, t.II, P. 47; Grousset, t.II, P. 490; Schlumberger , PP. 138-148.

(٣) Michaud, t.II, P. 47.

This PDF was created using the Sonic PDF Creator.
To remove this watermark, please license this product at www.investintech.com